روايات أحلام

روزالي مور

وَجهكَ البَحر

www.elromancia.com

١٢

مرمورية

روايات أحلام

وجهك البحر • روزالي مور

الخلاص! عاشت ميلا عمرها يوماً بيوم على هذا الأمل: أن تهرب من الجزيرة التي تعيش فيها، وتتخلص من والديها بالتبني اللذان يعاملانها كخادمة في فندقهما.

وجاء جون كاليهن ليقدّم لها خشبة الخلاص. ولم تتردد ميلا في استغلال الفرصة فهربت مع فارسها المنقذ على مركب أبيض نحو المجهول.

وفي عرض البحر اكتشفت الحقيقة، لقد أرسله جدها ليأتي بها: جدها الذي حرمها من أبيها منذ طفولتها وطرد أمها.

ميلا لن تتخلى عن عزة نفسها ولن تمنح جدها فرصة رؤيتها أبداً.

لكن السؤال هو كيف ستتخلص من جون؟

تصدر عن دار الفراشة

١ ـ سندريلا والبحار

وقفت ميلا جامدة فوق الصخرة. وأغمضت عينيها، وعدّت للعشرة، ثم فتحت عينيها ثانية. كان الرجل ما زال هناك، ممدداً على الشاطىء والمياه تضرب قدميه العاريتين، مستلقياً على ظهره وإحدى ذراعيه فوق وجهه وكأنما يحميه من الشمس. ثم تحرك قليلاً، وركضت ميلا نحوه، هابطة من فوق الصخور، برشاقة لأنها تأتي إلى هذه الطريق كل يوم وكانت معتادة عليه. وأسرعت فوق الرمال الذهبية الى حيث كان يستلقي، وركعت بالقرب منه، بينما كان يفتح عينيه.

ـ هل أنت مصاب؟

وتفحصها بصمت، ثم ابتسم، بضعف، ورأت المرح يلمع في عينيه، وحاول الجلوس، وأجاب:

ـ لست متأكداً. أشعر وكأن ورماً على رأسي بحجم البيضة، هل أنا هكذا؟

وتطلعت ميلا إليه، وقطبت ثم هزّت رأسها.

ـ لا أستطيع رؤية شيء. ارقد كما انت.. سأذهب لأحضر...

ـ لا...

ووجدت ذراعها في قبضة مدهشة القوة.

ـ لا تفعلي.. لا تحضري أحداً.. بعد.

- ولكنك مصاب...
- سأكون بخير بعد لحظة. هل تساعدينني لأقف؟
- أجل بالطبع.

كان ثقيلاً، ولكنها كانت قوية كأية شابة في عمرها، وعندما ساعدته ليقف على رجليه، ترنح قليلاً، ثم حدق بها.

- أترين..؟ إني بخير الآن.

ثم وضع يده على جبينه وصرخ «آخ!».

- انظر.. دعني أذهب و...
- لا.. أرجوك.. لا.. أحتاج فقط لبعض الوقت، هذا كل شيء.

وكان كلامه قد أنهى الموضوع، وضع ذراعه حول كتفيها وقال:

- هل أستطيع أن أجد ظلاً أجلس فيه لبرهة؟
- تعال من هنا..

وشعرت كأنها ممرضة ترعى مريضاً. ومع أنه كان يتكىء عليها إلا أنه لم يكن ثقيلاً. ولكنها لم تكن قادرة على التخلص من قبضته حتى ولو أرادت، وهذا ما لم تفعله. وأحست بفكرة ما، فكرة تتكون في ذهنها، غير ملموسة بعد، ولكنها بدأت توحي بكلمة واحدة. الخلاص.

التقدم كان بطيئاً. ولم تكن تعرف ما إذا كان مصاباً، ومن أين أتى؟ هذا أول سؤال يجب أن تطرحه، ولكن ليس بعد. عندما يصلان إلى «الكابين» ستسأله، والمكان ما زال بعيداً، داخل أجمة كثيفة من الأشجار، وقالت وهما يقتربان منه:

- يوجد منزل صغير هنا. لا أحد يأتي إليه، ولكن فيه سرير تستطيع الاستلقاء عليه، وربما كان هناك بعض الطعام. هل أنت جائع؟
- لا.. بل عطشان. هل هناك ماء؟
- لا أعرف..

وكانا قد ابتعدا عن الشمس الآن، في ظلال الأشجار العالية، وكان الجو هناك أبرد. وشعرت به يرتجف، وتساءلت ما إذا كان محموماً. كم يا ترى سبح؟ لقد كانا وسط مكان ما، جزيرة صغيرة في الكاريبي، ولم تشاهد أي مركب هذا الصباح. ولكن ربما أمضى الليل مستلقياً على الشاطىء. وقاطع صوته تفكيرها:

- هل هذا هو المكان؟
- أجل..

ودفعت الباب، ودخلا.

- اجلس فوق السرير. سأرى ماذا يوجد هنالك.

ودخلت المطبخ الصغير، وبدأت تفتح الخزائن. إلى جانب علب الطعام كان هناك زجاجتان من المياه المعدنية. وفتحت إحداها ثم أخذت كوباً كبيراً وحملتهما الى الداخل.

- خذ هذا.. فهو أفضل ما استطعت الحصول عليه.
- شكراً..

وشرب بعطش، وراقبته ميلا. لقد جفّ بنطلونه الشورت الأزرق والقميص عليه الآن، كانا يبدوان كأسوأ ما يلبس المرء، فقد كان هذا كل ما يلبسه، لا جوارب، ولا حذاء، ولا سترة، لا شيء. والقميص قد فقد كل أزراره، وأكمامه قصيرة، كان رجلاً عملاقاً، أسمر، عضلات بارزة وله شعر كثيف. وفكرت ميلا وهي تنظر إليه. بمقدوره أن يسبح مئة ميل دون أن يشعر بالتعب. وشعرت بقلبها يخفق، لأنه إذا كان يوجد أحد يستطيع إخراجها من الجزيرة، فهو من يستطيع.

- من أين اتيت؟

وبعدما روى عطشه، نظر إليها، وعيناه زرقاوان في وجه أسمر مبتسم. وأجاب:

- لا أعرف.

ووضع الكوب من يده، ومرر يده في شعره الأسود القصير وأردف:
- لا أتذكر.

وجلست ميلا بقربه على السرير، فقد كانت تتوقع أي جواب ما عدا هذا. كانت قد فكرت للحظات، عندما رفض أن تأتيه بالمساعدة:

- لقد ظننت أنك ربما تكون هارباً من العدالة أو شيء من هذا.

وتوقعت منه أن يبتسم، فقد بدا عليه أنه رجل كثير الابتسام. ولكنه هذه المرة لم يفعل، بل نظر إليها. إن له وجهاً جميلاً، نوع من الوجوه يمكنك الشعور بالثقة به، وهناك خطوط ضاحكة حول عينيه، وفم عريض مخصص للضحك، وأسنان جميلة، وذقن قوية جداً، وأنف مستقيم. ومع أنه كان يبدو وكأنه يضحك كثيراً إلا أنه كذلك يبدو قاسياً. وقال:

- لديّ شعور بأنني هارب من شخص أو من شيء. ولهذا لم أرغب في أن تحضري شخصاً آخراً. ولكن لا داعي لأن تقلقي فأنت آمنة تماماً معي. أعني.. أنني قد أكون سارق مصارف أو مهرب.. ولكنني متأكد مئة بالمئة أنني لم أؤذي امرأة أبداً.

- أعرف هذا.

- وكيف لك أن تعرفي؟

- عندك نوع من الوجوه أثق بها.

- شكراً لك.. هل استطيع أن أسألك عن اسمك؟

- اسمي ميلا.. ميلا ساندرز.. أنت أميركي، أليس كذلك؟

- أجل.. اظن هذا، واسمي جون، على الأقل هكذا أذكر، وهذا يكفي الآن.

- جون.. الأفضل أن ألقي نظرة على رأسك الآن.

- إذا رغبتي في هذا.

وأحنى رأسه إلى الأمام. وجلس جامداً، ووقفت وكأنها طبيب يتفحصه، ومررت أصابعها بلطف على جلدة رأسه كلها.

- يبدو لي سليماً.. هل لا زال يؤلمك؟

- ليس الآن.. لقد شفيتني أيتها الممرضة.

- وماذا ستفعل الآن؟

- هل يأتي أحد إلى هذا «الكابين».

- ليس في مثل هذا الوقت من السنة، فالمكان هادىء في هذه الأيام. وأنا أعيش في الفندق هنا، الذي يديره.. والداي بالتبني.

- والداك بالتبني؟ كلاهما؟

- أجل..

- لا بأس إذا كنت تريدين أن لا أسأل فلن أفعل.

ونظرت إليه، وعيناها تلمعان بالتحدي والدموع. وقالت:

- أنا أكره هذا المكان. عندما رأيتك رأيت فيك فرصة الخلاص. هكذا! لقد قلتها!

وانتظرت شيئاً لا تعرف ما هو، وسمعته يتنفس بقوة، ثم قال بلطف:

- أوه يا ميلا.. أنا آسف. ولكن هل أنت متأكدة؟ أعني، كل انسان تمر به أوقات ضجر ويريد أن يهرب منها.

- وهل يدوم هذا إلى الأبد عند الناس الآخرين؟ هل يحدث هذا؟

- وهل هكذا هو الأمر؟

- أجل.. هكذا هو.

وجلست دون حراك، ثم شعرت بيد قوية فوق يدها فنظرت إليه. وضغط جون على يدها بلطف وقال:

- سأساعدك. بالطبع سأساعدك. ولن أسألك عن شيء. ولكنني سآخذك من هنا، وهذا وعد مني.

وتساءلت ميلا ما إذا كانت قد شعرت بمثل هذه السعادة في حياتها. كان هذا وكأن هموم عدد لا يحصى من الأيام قد تدحرج عن كتفيها. واستدارت إليه وعيناها تلمعان بالأمل.

- أوه.. شكراً لك. شكراً. ومتى نستطيع الذهاب؟ وكيف...

- مهلك لحظة! لا يجب أن نستعجل الأمر. أولاً يجب أن نجد مركباً، ثانياً يجب أن نحصل على بعض الطعام، وثالثاً يجب أن تهربي من أهلك دون ترك فرصة لهم للارتياب. لذا يحتاج الأمر إلى تخطيط. وأول خطوة في التخطيط هي.. متى يتوقعون عودتك إلى الفندق؟

وقفزت على قدميها، ونظرت إلى ساعتها، كانت تقارب السابعة.

- أوه.. سيستيقظون عما قريب.

- صحيح... والآن تسللي عائدة وتصرفي بشكل طبيعي، حسناً! ومتى تتوقعين أن تعودي؟

- ليس قبل الحادية عشر.

- جيد.. اذهبي الآن، سأبقى مختفياً عن الأنظار هنا.

وركضت ميلا مبتعدة، سريعة الخطوات وخفيفة الروح، واستطاعت أن تدخل المطبخ خلسة لتحضر إفطار الضيوف دون أن يراها أحد.

- أوه، كم أنت غبية يا ميلا!

صوت والدتها بالتبني الأجش أيقظها من أحلام اليقظة بالخلاص، ونظرت حولها من عند المغسلة المليئة بالصابون لترى المرأة الأخرى تلمّع أحد الصحون.

- إنه مكسور، أيتها الحمقاء. ألا تستطيعين أن تكوني حذرة أكثر؟

- آسفة يا لينا، ولكن كان عليك ترتيب الصحون...

- كان عليك أن تتفحصيها بنفسك، فلديّ ما يكفيني من عمل. كوني أكثر حذراً في المستقبل! ورمت الصحن على طاولة المطبخ وخرجت. وكشرت ميلا بوجهها وهي تخرج.

لقد أصبحت الساعة الآن قريبة من العاشرة، وغسل الصحون أوشك على الانتهاء، ومع شيء من الحظ ستستطيع أن تتسلل إلى «الكابين»، وكانت قد جمعت بعض الطعام، ووضعته في كيس وخبأته. كل ما عليها هو أن تختار اللحظة المناسبة وتهرع إلى حيث ينتظرها جون. لا بد أنه جائع الآن.

- هل قاربت على الانتهاء يا شقيقتي؟

هذا الصوت الذي تكرهه جاء من خلفها، وقاومت ميلا رغبة في الإمساك بمنشفة الصحون لتمسح بها وجهه. واستدارت لترى أمامها ماتياس ابن لينا، يقف إلى جانبها.

- أنا لست شقيقتك.

ورفع ماتياس حاجبه بسخرية. إنه شاب قصير ممتلىء الجسم، وله شعر أمه الرمادي اللون وبشرتها الصافية. وحدّق بميلا بعينيه الوقحتين، ولكنه بقي بعيداً عنها بخطوات.

- حسناً يا شقيقتي بالتبني.. هل هذا أفضل؟

ونظرت ميلا إليه من فوق إلى تحت. ثم ابتسمت ببطء. كانت تقريباً بنفس قوته، وكلاهما يعرف هذا. وعلى الرغم من أنها تشمئز منه بنفس القدر الذي تشمئز به من الآخرين، إلا أنه لم يكن يخيفها، لأنها كانت قادرة على العناية بنفسها عندما يكون الأمر متعلقاً به، ومرة عندما حاول مغازلتها دفعت به ليرتطم بالجدار وأدمت له أنفه. ومنذ ذلك الوقت كان يحذرها. ولكنه كان بطبيعته حقوداً، ولم يسامحها أبداً على هذه الحادثة.

- ابقى على هذه المسافة مني يا شقيقي بالتبني. فلن ترغب في أن

تراك أمك تبكي. أليس كذلك؟

والتمعت عيناها، وأبعدت شعرها الأحمر الداكن عن خديها، وواجهته وذراعاها على خاصرتيها. وقال لها باشتهاء:

- في أحد الأيام.. في أحد الايام..

ورفعت ميلا حاجبيها متحدية بدورها:

- نعم.. وماذا ستفعل؟

فابتسم بسخرية «ستكتشفين هذا في أوانه».

- اوه... بووه...

واستدارت عنه قبل أن تفضح ابتسامتها شيئاً. إنه لا يعرف شيئاً عن جون. جون.. ومن لن يخاف منه، من مجرد النظر إليه.

- لديّ عمل أقوم به. لماذا لا تذهب وتري فتنتك للضيوف، كما تفعل دائماً؟ هل تريد السيدة ساندز عصير الأناناس الطازج؟ اركض واحضره لها، إذاً.

وقبض ماتياس فجأة على ذراعها وأدارها بقوة، فجذبت ذراعها منه وضربته.

- ابعد يديك عني قبل أن أركلك.

- لن تقولي هذا عما قريب. انتظري فقط!

وابيّض الجلد حول فمه من الغضب، كان هناك حقد في صوته، وتركها وخرج. ووقفت ميلا تحدق به، وفجأة وللمرة الأولى منذ عرفته، شعرت بالخوف منه. وفركت ذراعها حيث أمسكها، وأصابتها الدهشة عندما وجدت نفسها ترتجف. ماذا قال؟ انتظري فقط! كان وكأنه يعلم شيئاً لا تعرفه هي.

وركضت خارج المطبخ، وجهها شاحب، ولكن دون أن تهتم، وأمسكت بكيس الطعام، وتسللت عبر الحدائق نحو المخبأ بين الأشجار.

وجدت الكابين فارغاً، وتطلعت من حولها، وجعلتها الخيبة تتساءل ما إذا كان هذا حلماً. فليس هناك شيء يدلّ على أن شخصاً كان هناك. الزجاجة والكوب اختفيا، غطاء السرير مرتبّ. وجلست ميلا وقد شعرت فجأة بضعف ساقيها، بعدما حدث للتو مع ماتياس.

- هاي.. ماذا دهاك؟

ونظرت إلى الباب حيث صدر الصوت، وقد غمرها الارتياح. ودون تفكير ركضت إليه وأحاطته بذراعيها، وهمست:

- أوه يا جون! أنت هنا! لقد ظننت.. أنا.. ظننت بعدما حدث.. اوه!

- ما بك الآن.. توقفي! ابدأي من الأول.. ماذا حدث؟

وأخبرته بأمر ماتياس، وكيف أنها هرعت خارجة من الفندق لتجد «الكابين» فارغاً، وأوقفها عن الكلام بوضع أصابعه على فمها.

- كنت أستكشف ما حولي. أتفحص موقع المنطقة، هذا كل شيء. وها قد عدت. لم أكن أتوقع عودتك قبل نصف ساعة، ومن هو هذا الوحش المسمى ماتياس؟ هل هو حقاً شقيقك بالتبني؟

وتنهدت، فقد حان الوقت لتخبره كل شيء. ولكن أولاً الطعام:

- هناك بعض الدجاج واللحم وبعض الطعام. كنت أعلم أنك جائع. كُلّ وأنا أخبرك القصة.

وجلست بسعادة على السرير، وجلس جون بقربها بعد تردد وحيرة قصيرة.

- أمي وأبي.. أعني، الحقيقيون، تطلقا منذ تسع سنوات وكنت في العاشرة من عمري، وذهبت لأعيش مع أمي، ثم تزوجت من رالف ساندرز، واشتريا الفندق الذي نعيش فيه الآن. ثم ماتت أمي منذ ست سنوات. وتزوج زوج أمي ثانية، من امرأة تدعى لينا، ولديها هذا الابن.. ماتياس، تصور اسمه، إنه مريع. وهي كذلك مريعة،

وكلاهما كريه، حتى زوج أمي رالف، مع أنه لم يكن هكذا قبل أن تغيّره لينا. وهما يستخدماني للعمل هنا طوال الوقت وأنا أريد أن أهرب، ولكنني لم أتمكن أبداً.. وها أنت الآن هنا..

- توقفي للحظة. خذي نفساً. وماذا عن أبيك؟ أبوك الحقيقي؟

- لا أستطيع التحدث عنه.. أرجوك لا تسأل.

- ولماذا لا؟

- لأنه كان ظالما مع أمي، هذا هو السبب. وعندما تزوجت رالف تبناني قانونياً. وأخذت اسمه.

- ولكن ماذا كان اسم عائلتك من قبل؟

ونظرت إليه ميلا، وشعرت أن هناك شيئاً لم تستطع فهمه، هناك شيء عادي فيه، ومع ذلك.. غير عادي، لم تستطع أن تعرف ما هو.

- قلت لك، لا أريد التحدث بالموضوع.

- حسناً يا حلوة. هذا الطعام لذيذ. من يقوم بالطبخ.

- احزر!

- أنت؟ يا لك من فتاة!

- ليس هذا باختياري، أؤكد لك. إنه.. من الأسهل لي أن أفعل ما يأمروني به.

- يا لك من طفلة مسكينة. يا سندريللا المسكينة.

ولم يكن هناك سخرية في لهجته، فقط شيء لم تعرف ما هو. وهذه المرة الثانية التي تشعر هكذا. وأحبته على الفور، ولكنها مع ذلك شعرت بعدم الارتياح فوقفت وابتعدت عنه، ثم استدارت لتواجهه.

- هل تذكرت من أنت؟

- لا.. ولكنني سأتذكر.. هل أنت قلقة؟

- لا.. إذا لم تكن أنت. ولكن ماذا لو أتى شخص يسأل عنك؟

أعني لو أنك.. لو أنك..

- لو أنني هارب. أهذا ما تعنين؟ ومن سيفتش مكاناً كهذا؟ إنه يبعد أميالاً عن المدينة.

- أعلم هذا.. وكيف أتيت أنت إلى هنا؟

- يجب أن أكون أتيت سباحة، أليس كذلك.

كان صوته مرحاً وكأن المشكلة لا تعنيه مباشرة. وأحسّت ميلا بشعور بائس. لقد حدث كل شيء فجأة، والآن للمرة الأولى. بدأت تفكر بالأمر، والأفكار كانت واقعية. لقد كانت يائسة للهرب، إلى أي مكان، ولفترة طويلة، وهذا الإنسان قد خرج من البحر، استجابة لصلواتها، ولكنها لا تعرف شيئاً، البتة، عنه، سوى أنه أميركي، ضخم، قوي، ضحوك، واسمه جون. وقد رمت نفسها بين ذراعيه، وتوسلت إليه أن يحملها بعيداً، ووافق. وكأن هذا شيء يفعله كل يوم. ووضعت يدها على جبهتها. فضرب السرير بالقرب منه..

- هاي.. لا تظهري هكذا قلقة. تعالي واجلسي بقربي.

وهزت رأسها قائلة «لا...».

لا بد أنه قارىء أفكار.. لأنه وقف، ووضع كيس الطعام بهدوء على السرير، ثم سار نحوها. كان أطول منها بكثير، تصل إلى طول كتفيه، ووضع يديه على ذراعيها بلطف، يدان لهما من القوة القدرة على كسر أي شخص إلى قطعتين لو شاء ثم قال:

- أنا أعرف. أنت تتساءلين عما دفعك للثقة بغريب مثلي.. صحيح؟

ومررت لسانها على شفتيها الجافتين «أجل» وخرجت منها الكلمة بهمس:

- وأنا لا أعرف كيف أطمئنك، هل هذا صحيح؟ ما عدا أن أقول لك إنني أعدك بأنك بأمان تام معي. أنت مجرد طفلة. كم عمرك؟

ثمانية عشر.. تسعة عشر؟

- تسعة عشر.

ونظرت إلى عينيه، ورقتا لها، وتجعدت خطوط الضحك من حولهما، وبدتا لطيفتين مثله تماماً، لم يكن فيهما قساوة أو خبث، وظهرت غمازة عميقة على خده وهو يبتسم لها.

- تسعة عشر، ومما يشكو هذا السن! حسناً ميلا ساندرز ذات التاسعة عشر، سوف أخرجك سالمة من هنا، وقريباً. والآن هل عندك أشياء ترغبين في حزمها؟

- أتعني ثياب؟

- وما غيرها؟

- و.. ولكن.. متى نستطيع الذهاب؟ أعني.. كيف؟

- اتركي كل هذا لي. كل الضيوف هنا لديهم مراكب، أليس كذلك؟

- معظمهم، وبعضهم أتى بمركب أجرة من مكان يبعد خمسين ميلا من هنا. اسمه «هاملتون ريف» لا.. لا يمكن أن تكون سبحت من هناك... أليس كذلك؟

- هاملتون ريف.. هم... لا.. لا أتذكر. إنه جزيرة أخرى.. أليس كذلك؟

- أجل.

- وهل تبعد خمسين ميلا بهذا الاتجاه.

- إلى الغرب.. وهل تنوي سرقة مركب؟

- ربما..

- ومتى؟

- الليلة. وأفضل كلمة الاستعارة، متى يذهب الضيوف إلى الفراش؟

- بعضهم حتى منتصف الليل أو بعده، وهناك راقصون على الشرفة معظم الليل. وعليّ أن أقدّم الشراب والأشياء الأخرى.

- أتعنين أنك تعملين منذ الصباح الباكر إلى هذا الوقت المتأخر؟ وماذا يفعل أهلك بالتبني، وهذا المسخ ماتياس؟

- إنهم لا يستيقظون باكراً مثلي، ولكنني عادة أنام بعد الظهر، إذا كنت محظوظة.

- حظك على وشك أن يتغير.

وللمرة الثالثة شعرت بنوعية ما في صوته تركت مشاعرها محتارة مرة أخرى. وحاولت التحرك مبتعدة عنه، وترك ذراعيها فوراً.

- الأفضل أن أعود قبل أن يفتقدوني.

- احزمي بعض الثياب في صرة واحضريها إلى هنا عندما تستطيعين. وإلى ذلك الوقت سأفكر بخطة. اذهبي الآن يا ميلا، وشكراً لك على الطعام.

ودون أن تجيب ركضت باتجاه الفندق.

الظلام يهبط بسرعة في الكاريبي، وبينما كانت ميلا تقف عند نافذة غرفة نومها بعد العشاء تلك الليلة، شاهدت هلال القمر الرفيع معلّقاً في منتصف السماء السوداء المخملية. وسمعت الموسيقى تأتي ضعيفة من التراس وأخذت تفكر فجأة: هذه آخر ليلة لي هنا، وامتزج الشعور بالحرية الجديدة باضطراب خفيف. فقد كانت على وشك إلزام نفسها، بسلسلة أعمال جديدة عليها، بحيث أنها شعرت بالرعب.

ونظرت إلى فراشها، وإلى صرة الثياب الصغيرة المخبأة تحته، في حال دخل عليه شخص ما، مع أن هذا غير محتمل، فالجميع مشغول بخدمة الضيوف. وإذا لم تسرع إلى جون، فسوف يفتقدونها سريعاً.

ونظرت إلى ساعتها، كانت تقارب التاسعة والنصف، وحان الوقت

لتأخذ ثيابها إلى «الكابين» وترى ماذا خطط جون، وفتحت بابها وأرهفت السمع. صوت الموسيقى أصبح اعلى الآن، ولكنها لم تشاهد أحداً. وانحنت واخذت ثيابها، وتسللت من الباب بسرعة إلى الشرفة، كان من السهل عليها أن تنزل بواسطة النباتات المتسلقة. فقد فعلت هذا عدة مرات، وبعد ثواني كانت تركض عبر الحدائق المظلمة مبتعدة عن الأضواء والصوت، والناس. وكان الكابين مظلماً، وترددت خارج الباب. ماذا لو كان خالياً؟ لو أنه اختفى؟ وتذكرت صدمتها السابقة عندما ظنت أنه اختلاق من خيالها، ثم، أخذت نفساً عميقاً، وأمسكت مقبض الباب، وببطء، ببطء شديد، دفعته لينفتح.. ودخلت.

الغرفة كانت خالية، ووقفت جامدة، وهمست «جون» ومرة أخرى «جون»؟ وفتح باب المطبخ ووقف ظل معتم لرجل هناك.

ـ لا بأس عليكِ.. لم أكن متأكداً أنه أنت.

وتقدم نحوها بسرعة، وقالت بإلحاح، بعد أن وضعت صرة الملابس على الكرسي «لا يجب أن نشعل أي نور هنا».

ـ أعرف، حتى أنني لم أحاول أن أجد شيئاً أضيئه. كنت أنتظرك، هل أنت مستعدة للذهاب؟

ـ لا.. علي أن أقدّم بعض الشراب بعد، على الأقل لفترة، لو تركت الآن سيأتون للتفتيش عني.. هل.. هل وجدت مركباً؟

ـ انتظري لتعرفي. أنا مستعد عندما تكونين أنت مستعدة.

ـ ولكن كيف...

ـ هس! لا تسألي أية أسئلة، اتركي كل شيء لي. إذا كان عليك العودة اذهبي. ثم تسللي عائدة عندما تستطيعين. سأكون بانتظارك.

وتوقف، وشعرت بضغط يده على ذراعها، وقال بهمس خفيف:

ـ هناك أحد في الخارج.. بسرعة الى المطبخ!

وشعرت بشعر رأسها يقف، وفي اللحظة التالية كان يحملها تقريباً عبر الغرفة إلى المطبخ، ووقف ملاصقاً لها، وتساءلت ما إذا كان قادراً على سماع ضربات قلبها، كانت عالية وسريعة، وأمسكت به برعب.

ـ من يمكن...

ـ هس! انتظري واجمدي!

وجاء صوته في أذنها وهو يلف ذراعيه حول كتفيها.

وفتح باب الكابين. وصدر عنه صوت صرير خفيف، وأخذت كل القصص المرعبة التي قرأت عنها تطارد مخيلتها وهي واقفة هناك، واثقة بأنه لو لم يكن يمسك بها لوقعت على الأرض.

ـ ميلا.. أعرف أنك هنا.. اخرجي!

كان هذا ماتياس. وشعرت بدفعة لطيفة، وسمعت نفس الصوت في اذنها:

ـ اذهبي.. تحدثي معه.

لم يكن هناك خيار آخر. لو أن ماتياس رأى جون فسينتهي كل شيء. كل خططها للهرب سوف تدمر في ثواني. وبثقة ولدت من اليأس الشديد قالت:

ـ ماذا تريد؟ لقد أخفتني!

وأضاء ماتياس الضوء، وجفلت، فقال ساخراً:

ـ هل أخفتك؟ هذا جيد! ماذا تفعلين هنا متسللة في الليل بحق السماء؟

ـ أفعل هذا غالباً لمجرد الراحة. لا بأس الآن، سأعود معك، أنا أعلم أن أمامي عمل.

كانت ثقتها بنفسها تزداد بمرور كل لحظة، ولم يصدر أي صوت من المطبخ.

وتطلع ماتياس في الغرفة، وعيناه لا تغفلان عن شيء. ثم نظرا

إليها واتسعت الابتسامة على فمه وقال:

- اوه.. لا أعرف.. ولكنهم لن يفتقدونا قبل فترة. وبما أننا الآن هنا..

وتحرك نحوها ببطء وقلق، وشعرت ميلا بالغثيان. فقالت وقد رفعت قبضتيها مهددة:

- لا تقترب أكثر.. أو سأضربك.

- أريد التحدث معك فقط.. لقد حان الوقت لنتكلم. لديّ أشياء كثيرة لأقولها لك، وأطلبها منك.

- لا أريد الحديث، أنت لا تعجبني!

- لا أعجبك؟ قد أكون أفضل صديق لك.

- إذاً فلتساعدني السماء!

كان كل شيء يسير على ما يرام، فهو لا يشك بشيء، ولم تكن خائفة منه، وكلما أسرعت بإخراجه من هنا...

وحدث ما لم تكن تتوقعه، فقد نسيت صرة الثياب على الكرسي وشاهدها ماتياس «ما هذه؟» وأصبحت قربه في الحال:

- لا شيء! اتركها.

- إذاً أستطيع أن أرى، أليس كذلك؟

وانحنى ليلتقطها، وأطلقت ميلا قبضتها باتجاهه، وربما هذا ما كان يتوقعه، لأنه في اللحظة التالية كان قد أمسك بها وأدارها لتصبح بين ذراعيه.

- لقد التقطتك، والآن أيتها القطة البرية حاولي الخلاص! أيتها القذرة، أنت من سعيت وراء هذا.

ودفعها إلى الفراش وألقى بنفسه فوقها.

ثم، وبسرعة أذهلت ميلا دخل جون إلى الغرفة ورفعه عنها بالكامل ورماه عبر الغرفة ليصطدم بالجدار الخارجي. ووقفت مذعورة

تراقب جون وهو يوقف ماتياس على قدميه ويقول:

- قف على رجليك أيها الوغد، حتى أستطيع أن أضربك جيداً.

وقفاً ماتياس جاهداً، وعيناه متسعتان بصدمة كاملة، وكأنه غير مصدق، وأمسكت ميلا ذراع جون. لأنه كان على وشك أن يطلق ضربة قد ترسل ماتياس محطماً عبر النافذة، واستدار جون ولا يزال يمسك بماتياس بيده اليمنى الضخمة ونظر إلى ميلا، ثم إلى ذراعه المتعلقة بها. وقال وهو غير مصدق:

- لا تقولي لي إنك لا تريديني أن أضربه؟

- اوه.. ألا ترى.. لقد دمّرت كل شيء!

وهز رأسه، ونظر إلى ماتياس نظرة سريعة ثم إلى ميلا ثانية، وآثار الغضب على وجهه.

- وهل كنت ستتركينه يغتصبك؟

- لا تكن سخيفاً! كنت سأتغلب عليه بسرعة. كان يجب أن تبقى حيث أنت!

- لا أصدق هذا! قولي إنني قد دخلت إلى فيلم هزلي وسأصدقك!

والتفت إلى ماتياس وصاح به «أنت.. هيا... على الفراش.. وابقى هناك دون حراك. وإلا سأضربك بسرعة ولن تستطيع التمييز كيف ضُربت».

وأطاع ماتياس صاغراً، لم يكن أمامه أي خيار، لأن النظرة في عيني جون قالت له إنه لم يكن مازحاً. ثم نظر جون إلى ميلا.

- حسناً.. هذا يعني الإسراع في خطتنا، وهذا كل شيء. هل تعتقدين حقاً أنه كان عليّ البقاء هناك وهو يهاجمك؟

- أستطيع العناية بنفسي. لقد فعلت هذا حتى الآن، ولكن ألا ترى.. إنه يعرف الآن. ماذا نستطيع أن نفعل؟

ونظر جون مفكراً إلى وجه ماتياس المتورم. وقال:

- كم تبعد تلك الجزيرة؟
- عشرة أميال.. لماذا؟
- هذا جيد إذاً. ستتحرك الآن.
- ولكن ماذا...
- هس! اتركي الأمر لي.. لقد قلت لك هذا. احضري ثيابك. هل هذا كل ما لديك؟
- اجل..
- حسناً احمليها. سأتولى أمر هذا الشعاع الضعيف من الشمس هنا. انهض على قدميك يا ولد.
وقال ماتياس:
- لا أعرف ماذا يجري.. ولكنك لن تفلت.. ستُدعو أمي البوليس إلى هنا بسرعة...
وكان جون ينظر إليه باهتمام مؤدب، ثم انفجر بالضحك وتوقف ماتياس في منتصف جملته. وقال له:
- هاي.. أتعلم شيئاً؟ لقد أفزعتني.. والآن.. تحرك.
ونهض ماتياس على قدميه وعيناه تتراقصان بقوة، من جون الى ميلا وبالعكس.
- أنت ستأخذها بعيداً.. إنها ذاهبة معك، أليس كذلك.
- أنت محق يا صبي.. وإذا حاولت منعنا، فستضيع وقتك، لقد تجاوزت ميلا الثامنة عشر، وإذا اختارت أن تذهب فلا أحد يستطيع أن يفعل شيئاً...
- أنت مجنون.. ثم إنها ليست في الثامنة عشر، بل في السابعة عشر. لا تصدق أي شيء قالته لك، إنها مصابة في عقلها.
ورفع جون قبضته، وكان هذا كافياً، فصمت ماتياس. ثم ابتسم جون، ببطء، ولكن بخبث بحيث أن الرجل الآخر أصبح شاحباً.

- كلمة أخرى تخرج منك، واحدة فقط، ولن تستيقظ قبل أسبوع. هل فهمت رسالتي؟
وخرجوا من الكابين، وكانت ميلا آخرهم. فأطفأت النور.
- من هنا!
- ولكن...
كان يشير إلى مكان ابعد بين الأشجار.
- دون ولكن.. ثقي بي فقط.. هل هذا مفهوم؟
- مفهوم.
وسارت القافلة الصغيرة في الظلام. ماتياس في المقدمة يتبعه جون واضعاً يده ببراءة على رقبته، ولكنه كان قد قال له، لو أنه حاول التحرك فسوف يضغط على رقبته بشكل قد يقتله. ولحقت بهما ميلا. ولم يتكلم أحد. إلى أن وصلوا، بعد نصف ساعة، إلى الطرف الآخر من الجزيرة، حيث خليج صغير جميل. وهناك شاهدوا عبّارة بيضاء صغيرة تطفو فوق الماء على بعد ياردات من ميناء صخري طبيعي.
- اصعدي إليها يا ميلا.
وخاضت ميلا في الماء وتسلقت الحبل إلى المركب، وانتظرت. وشاهدت شيئاً يحدث على الشاطىء، كان وكأنما جون قد لمس ماتياس الذي تهاوى فجأة ووقع. وبدأ جون يتسلق إلى المركب. وأمسك بالرجل ورماه في المركب وكأنه كيس بطاطا. وسألها:
- أية نقطة هي الأبعد عن الفندق؟
عندها علمت ما ينويه فسألته «هل.. هو بخير؟».
- سيكون بخير عندما يستيقظ. ثم سيضطر إلى السير لإجلاء الغموض من رأسه. لم أقدر أن اخاطر بتركه يفعل شيئاً وهو يصعد إلى المركب، وهكذا ضغطت على رقبته قليلاً..

- ولكنك قلت إن هذا قد يقتله!

- وهل صدقتي هذا. كنت أمزح فقط.

بطريقة ما كانت هذه لميلا آخر قشة تتمسك بها. لقد مرت بها ساعة فظيعة، عدة أشياء أخافتها، وتقريباً معركة، وكانت تشعر بالنشوة من هذه المغامرة. وكل ما يفعله هذا الرجل أن يقول إنها كانت مزاحاً.

- هل هذا كل ما تستطيع فعله، أن تجعل الضحكة تغمر وجهك السخيف؟ وهل تتمتع بضرب الناس؟ هل تفعل؟

كل ما شعرت به أنها ترغب في البكاء، وهو شيء لم تفعله من زمن طويل، حتى ولو ضحك عليها...

ولكنه لم يفعل، فقد اختفت الابتسامة، ووقف ينظر إليها:

- حسناً يا حلوتي.. أعتقد أنك بحاجة لبعض الراحة، بعد أن ترشديني إلى ذلك المرفأ في تلك الجزيرة. تستطيعين أن تستريحي.

واستدار قافزاً خطوتين إلى فوق ثم إلى جهاز القيادة. وتبعته ميلا ببطء نادمة على انفجارها به. وأذهلتها ردة فعله، ثم وقفت إلى جانبه عند الدفة وبدأ يتعامل مع جهاز القيادة.

- أنا آسفة!

- لا تعتذري. وستعذريني إذا لم أبتسم بعد الآن لك، اذهبي إلى هناك.. على السطح، لديّ شعور بأنك ستضربيني.

- كنت، كانت ردة فعل.. كما أعتقد.

- أعلم هذا.

وبدأ المحرك بالدوران وصاح فوق الصوت «بأي اتجاه؟».

- من هنا!

بعد خمسة عشر دقيقة حمل ماتياس الذي كان ما زال دائخاً ويحتج ووضعه على الصخور قرب الشاطىء. وتبادل معه بضع كلمات ثم عاد

إلى المركب وقال «ها قد ابتعدنا».

ونظرت ميلا إلى الوراء، كان ماتياس يجلس على الشاطىء ورأسه بين يديه. ولم يكن يبدو أنه مستعجل للذهاب إلى أي مكان، ثم ابتلعه الظلام والمركب يبتعد داخل البحر، وبدأت الجزيرة تصغر وتصغر. وأشاحت بوجهها عنها إلى الرجل عند دفة القيادة. لقد كانت بين يديه تماماً الآن. ووقف هناك، دون أن ينظر اليها، مركزاً انتباهه على مهمته، ضخم، واثق من نفسه، وغريب تماماً.

وفجأة شعرت بالرعب مما تفعل. فهي تذهب الآن نحو المجهول.

☆ ☆ ☆

٢ ـ الخدعة

لمسة ناعمة على ذراعيها، أيقظت ميلا، فجلست وهي تتطلع من حولها. كانت مستلقية على مقعد خشبي في غرفة المركب، ولم تصدّق بأنها نامت. وكان جون واقفاً وبيده كوب كبير وقال:

ـ هاك.. خذي بعض الكاكاو الساخن. إنه جيد. اشربيه كله.

واخذت منه الكوب. كان رأسها يؤلمها ولكنها لم تعد تشعر بالتعب.

ـ كم مضى عليّ وأنا نائمة؟

ـ حوالي ثلاث ساعات، لقد اقتربنا من جزيرة هاملتون ريف، سأرسو بالسفينة في مكان هادىء لقضاء الليل، وفي الصباح... حسناً سنقرر ماذا نفعل.

ولكن كان هناك أسئلة تدور في ذهن ميلا، أسئلة تتطلب رداً:

ـ من أين أتيت بالمركب؟ لم أره من قبل. وأنت لم «تستعره» من أحد المدعوين...

ـ اشربي هذا اولاً، ثم نتكلم.

وجلس على المقعد الخشبي المقابل، والتقط كوبه عن الطاولة بينهما. واحتست ميلا بعض ما في كوبها، وكان حلواً وساخناً، تماماً ما كانت بحاجة اليه. وقالت له:

ـ وكيف عرفت أين تقع هاملتون ريف؟

ـ اشربي أولاً. والاسئلة فيما بعد.

وهكذا شربت كل الكاكاو ووضعت الكوب على الطاولة. الضوء الخفيف في غرفة المركب كان يعطي العديد من الظلال، وجعل من وجهه يبدو اكثر اسمراراً، واقل لطفاً، ليس كما كان عليه خلال النهار، بل مختلف، مختلف تماماً. وعاد اليها التوتر وهي تنظر إليه، وحبست أنفاسها. عيناه بلون أزرق رمادي، ولكنهما الآن تبدوان سوداوين وهو ينظر إليها مراقباً، كأنه يقرأ أفكارها، وكأنه يعرف ما تفكر به تقريباً.

ـ ما الأمر.. قولي لي.

ولم تستطع، إذ كيف ستقول له إنني خائفة.. وأنا لا أعرفك.

وهزت رأسها وقالت: «لا شيء».

ـ ولكنني أعتقد أن هناك شيئاً، هل أنت خائفة؟

ـ لا..!

كانت تعرف منذ زمن أنها لا يجب أن تعترف بالخوف.

ـ بلى.. أنت خائفة. ولكنني قلت لك أن لا لزوم للخوف. فأنا لن أؤذيك مهما كانت الظروف.

ـ اذاً، هل تجيب على أسئلتي؟

ـ أجل.

ـ من أين أتيت بالمركب؟

ـ لقد قدمت به.

ـ ماذا؟ ماذا تعني؟

ـ أعتقد أنني مذنب لأنني خدعتك.

وشعرت ميلا بالبرودة، برجفة ثلجية تجري فوق عمودها الفقري، وكأن شخصاً يسكب الماء المثلج عليه، ولم تستطع أن تتكلم، وظلت تنظر إليه فقط.

- أنا لم أفقد ذاكرتي. وأعرف اسمي، فأنا جون كاليهن. وأنا في الثالثة والثلاثين، أميركي من كانساس، وهذا المركب استأجره رب عملي لي. هل تريدين معرفة اسمه؟

. كيف استطاعت أن تفكر به كشخص بحاجة للمساعدة؟ لم يكن هناك أية دلالة على حاجة هذا الرجل للمساعدة أبداً. ومرّت أمامها تفاصيل أحداث اليوم بسرعة، وعندها لاحظت كل الأخطاء التي فاتها أن تلاحظها، وها هي تقف أمامها بوضوح مذهل: اختفاؤه عندما اعتقد أنها لن تعود اليه، لا بد أنه ذهب إلى مركبه لأجل الطعام، ومع أنه اكل من الطعام الذي أحضرته، الا إنه لم يكن يبدو عليه الجوع الزائد كما يجب.. ولم يكن هناك أثر لأية ضربة على رأسه، ولكنه تصرف فقط وكأنه مصاب. والطريقة التي دعاها بها «سندريلا المسكينة» وكأنه يعرف شيئاً لا تعرفه. والطريقة التي قال لها بها إن حظها على وشك أن يتغير. والطريقة التي سأل بها عن اسم عائلتها. أشياء كانت مصدر حيرة لها في وقتها، ولكن بطريقة لم تستطع تحديدها. والآن.. وفجأة.. اعتقدت أنها أصبحت تعرف. فقالت ببطء:

- وصولك... إلى الشاطىء.. حيث وجدتك، لم يكن حادثاً. أليس كذلك؟ لقد خططت له.

- أجل.. كانت هذه الطريقة الوحيدة أمامي

- الطريقة الوحيدة لماذا؟

- للتعرف عليك دون وجود أي شخص آخر. كنت أعرف أنك تذهبين إلى هناك كل صباح.

- ولماذا؟ لماذا؟ من أنت؟

- لقد قلت لك...

- لا.. لا أعني اسمك.. بل أعني.

ورفعت أصابعها إلى فمها «أشعر بالغثيان».

- لا.. بل أنت تعبة وخائفة، هذا كل شيء، وستعودين للنوم ثانية، لا لزوم لأن تخافي من أي شيء. وفي الصباح ستشعرين بأحسن حال.

- قل لي.. قل لي اسمه.

- رب عملي.. هو.. جدك.. روبرت. ك. ستارتنغ...

- كنت أعلم هذا.

وكانت يده فوق يدها، وأرادت أن تؤلمه، فدفعت يده عن يدها، ووقفت، ومدت نفسها فوق الطاولة وبدأت تضربه بقوة قدر استطاعتها ومال جانباً ليتجنب الضربات، وترك المقعد وأمسك بها وهي تحاول اللحاق به، وأمسك بمعصميها بيديه وقال:

- لا تضربيني!

ودفعته ميلا بكل قوتها فوقع على المقعد ثانية، وجذبها معه. ثم أجلسها ثانية بين ركبتيه. وأحست به يحبس أنفاسه، ثم أدركت أنه يحاول أن لا يضحك، مما أغضبها أكثر، فأخذت تقاوم بعنف، ولكنها لم تستطع أن تتحرك. فصرخت:

- أنا أكرهك! أفضّل أن أعود إلى هناك.. معهم، بدلاً من كوني معك!

- لا.. لن تعودي. اهدأي! لا عجب أن ماتياس كان يبتعد عنك! يا إلهي أنت مثل سمكة الحنكليس الصغيرة، توقفي عن التلوي..

- لا.. لن أفعل..

ومالت برأسها الى الأمام وعضته في يده، وسمعت صرخة ألمه بكثير من الرضى. وللحظة أرخى قبضته عنها، وكان هذا كافياً، واصبحت عند باب الغرفة كالبرق، وفتحته وركضت صاعدة السلم، ثم إلى حافة المركب استعداداً للقفز إلى البحر، ولكنه أمسك بها،

وحملها وجذبها بعيداً.

- يا إلهي! هل تريدين الانتحار؟ هل تعرفين ما هو القرش؟

- إنه لا يهاجمون إلا إذا ازعجتهم.. وهم أفضل منك.. ومنه!

- دعينا نتناقش في الغرفة، هل تسمحين؟ هل تسيرين أم أحملك؟

- لن أناقش معك شيئاً.. أبداً. وارفع يديك عني!

- لن أفعل.. فلا أثق بك.

ولم تستطع أن تركله على ساقه لإيقاعه، لأنه كان متوازناً وساقيه متباعدتان، ويداه تقبضان على ذراعيها عند الكوع، ووجهه لا يبعد عن وجهها، وعيناه تلمعان بالغضب منها. وعاد إليها الخوف. فما هي فرصتها امامه؟ لقد رأت ما فعله بماتياس، دون عناء. وها هو الآن غاضب.. وهذا شيء لا تلومه عليه، بعد تهجمها العنيف عليه. ولكن الأسوأ أن رأسها بدأ بالدوران، فأرخت اعصابها على الفور، وهكذا فعل هو ايضاً. وقال:

- هذا أفضل. تعالي إلى الغرفة.

وعاد معها، وأقفل الباب من الداخل ووضع المفتاح في جيبه، وقال «اجلسي».

- لا..!

- اجلسي يا ميلا.

فجلست، وفتح الخزانة وأخرج منها علبة الإسعافات الأولية. وفتحها، ووضع قليلاً من مرهم على يده. ونظر إليها وهو يفعل هذا وقال:

- لقد عرفت الآن شعورك نحو جدك. ولكن من الواضح أنك لا تعرفينه.. إنه رجل عجوز يا ميلا...

- لا احتاجك لتقول لي أي شيء عنه. شكراً لك، إنه وحش، طاغية ثري عجوز يحصل على كل شيء حسب هواه. من أنت على

كل الأحوال؟ واحد ممن يستأجرهم؟

كانت تبذل الجهد لتتكلم، وتساءلت لماذا تهتز أضواء الغرفة، ثم انهمرت الدموع على خديها، ولكنها لم تمسحها. لن تعطيه فرصة الرضى.

- لا.. والدي صديق له.. وكان صديقاً لوالدك أيضاً.

- كان؟ وهل.. توفي أبي؟

- أجل.. مات منذ سنتين. ولكن جدك كان يحاول البحث عنك قبل ذلك بوقت طويل، حتى منذ طلاق أمك، واختفاءها معك...

- وماذا تعرف عن الأمر؟ وماذا تعني «اختفت»؟

- اعرف كل شيء.. لقد أخبرني جدك.

- لا تقل إنه جدي! لا أريد أن...

- حسناً سأدعوه ريس. أيناسبك هذا أكثر؟ هل ستستمعين إليّ، أم ستقاطعيني دائماً؟ لانك لو كنت ستفعلين فسأصمت!

وصمتت ميلا، ولسبب ما شعرت بالتعب بدرجة غير عادية، وأقلقها هذا. وجلس جون قبالتها وقال بلطف:

- هذا أفضل.. والآن لماذا لا تنامين وسنتحدث صباح الغد؟

- ليس هناك ما نقوله. إذا كنت تظن أنني سأذهب معك كي ألتقيه.. ذلك الرجل.. فأنت مخطىء. لقد أضعت رحلتك سدى. وكل الأدعاء بفقدانك ذاكرتك، وأنك هارب من العدالة، كله لن يفيدك. لأنني لن...

وتوقفت، لأنها نسيت ماذا كانت تريد أن تقول. كانت تعرف أن لديها الكثير من الكلام، ولكنها لحظتها لم تستطع حتى تذكر ما هو.

- اسمعي يا حلوتي ميلا. لقد وضعت مخدراً في شرابك.. لا شيء مضر، ولكنك بحاجة للراحة. ستنامين الآن هنا، وسأنام على السطح وفي الصباح ستكونين بخير...

- لا!.. لم يكن يجب أن...

- إذا اردت شيئاً، ناديني. استلقي وسأغطيك بالبطانية.

بدا سهلاً عليها أن تطيع، وكان صوته لطيفاً وناعماً. وتنهدت ميلا، وضعت رأسها على الوسادة وأغلقت عينيها. وشعرت بدفء البطانية، وسمعت صوت إطفاء النور ثم الباب يفتح، وفتحت عينيها، وأقفل الباب، ثم ساد الصمت، وبعد بضع ثواني دارت محركات المركب، ولكنها كانت على وشك أن تغفو، وبدا لها الصوت بعيداً.

استيقظت من النوم بينما الظلام لا يزال سائداً، واستلقت لبرهة تتساءل أين هي. وعادت إليها ذاكرتها، فجلست ووضعت رجليها على الأرض ووقفت. كل شيء كان هادئاً وصامتاً. وتقدمت نحو النافذة ونظرت إلى الخارج. واستطاعت أن ترى أشجاراً وصخوراً، وهذا كل شيء. ما تبقى كان مظللاً، ورمادياً. لم يكن لديها فكرة عن الساعة، أو حتى أين هما، مع أنها قدّرت أنهما في هاميلتون ريف. وعندما حاولت فتح باب الغرفة وجدته لا يزال مغلقاً. وعاودها الغضب، لقد وثقت به لأن وجهه كان لطيفاً، ورأت فيه فرصة للخلاص.. الخلاص! كم تعطي هذه الكلمة صدىً فارغاً الآن! إنه يعمل للرجل الذي كان يعارض زواج ابنه من أم ميلا لدرجة أنه حرمه من الميراث. إنه رجل متوحش رغم أنه ثري. والجميع يهرع لطاعته. لقد سمعت ميلا ما يكفي عن روبرت ك. ستارتنغ حتى أنها تكره الاسم. الشيء الوحيد الذي لم يحسب حسابه أن والدتها كانت من عائلة ثرية أيضاً. وكان لديها ما يكفي لهما معاً، إلى أن ساءت الأمور، وافترقا، وأخيراً، تطلقا.

والآن لم يعد لها أي شخص. أمها توفيت، وأبوها كذلك. مع أنها لا تشعر حول هذا، لا مشاعر، لا أسف، لأنه لم يقدّم لأمها سوى التعاسة... وجلست ميلا ثانية على المقعد الخشبي. وترقرقت

الدموع في عينيها. بالأمس في مثل هذا الوقت، كانت لا تزال تعيش في الفندق، وهي تكرهه، ترغب في الهرب منه، دون معرفة إلى أين.. ثم ومن لا مكان، وأتتها الفرصة للخلاص... وانقلب الأمر ليكون اسوأ مما كان عليه. واتتها فكرة بدأت تتجمع في ذهنها، ولكنها تحتاج لوقت لتفكر فيها قبل أن يستفيق جون.

وأصبحت مستعدة، بعد أن مشطت شعرها، وغيّرت ثيابها، ثم جلست إلى الطاولة تقرأ كتاباً عن حياة البحرية، وفتح الباب ودخل جون بهدوء وكأنه يتوقع أن يراها نائمة. فقالت له:

- صباح الخير.

- صباح الخير يا ميلا.. هل نمت جيداً؟

- أجل.. شكراً.. أنا جائعة.

- جيد.. وكذلك أنا. أتحبين اللحم والبيض؟

- أجل.. لقد غسلت ثيابي.. هل يمكن أن أنشرها فوق؟

- بكل حرية.. لكن قبل أن تفعلي، يجب أن أحذرك أننا بعيدون عن الشاطىء وهناك صخور مؤذية حولنا.

- أوه!.. أتعني في حال قررت القفز إلى البحر.

- شيء من هذا القبيل.

- ولكنك ستلحق بي إن فعلت، ألن تفعل؟

- أجل..

- إذاً لن يكون هناك جدوى.. فأنا واثقة أنك أسرع مني بالسباحة.

واخذت ثيابها عن الطاولة وخرجت من الغرفة. ومع ذلك كان الأمر مغرياً ونشرت الثياب على سور المركب لتجف، ونظرت نحو الشاطىء. كان في جهة مهجورة من الجزيرة، حيث لا شيء يتحرك. ولكن على مسافة عدة أميال كان الشاطىء يضج بالسياح والعديد من الناس. كل ما تحتاج إليه القليل من الصبر، ولقد انتظرت طويلاً

لتعلم أنها قادرة على الانتظار قليلاً. واستدارت ميلا ونزلت إلى الغرفة. كان جون مشغولاً بتحضير الأطباق. وجلست إلى الطاولة. لن تقدّم له المساعدة. فقد يرتاب بها بعدما تصرفت معه الليل الفائت. وأخذت الكتاب ثانية وعادت تقرأ.

- إنه كتاب مثير للاهتمام. أليس كذلك؟

- أجل.. لم يكن لديّ الوقت الكافي للقراءة في الفندق. كنت مشغولة جداً.

وبدأ جون يصفّر وهو يعمل، ونظرت إليه ميلا، إلى ظهره العريض وهو يقف عند الطباخ.

وفكّرت، لو أن أحداً سألها ما هو أسوأ من العيش مع تلك العصابة في الفندق، لأجابت «لا شيء» لأنها لم تكن تتصور أن شيئاً ممكن أن يكون أسوأ ولكنها تعرف الآن ما هو أسوأ، وماذا يجعل هذا من جون؟ جون الذي يحب روبرت ستارتنغ؟ أو ربما يبدو هكذا.. وشعرت ميلا بالبرد. فالمال يدفع العديد من الناس لفعل العديد من الأشياء، وبالنسبة لـ «آر. اس». فالقاعدة بسيطة: المال يشتري كل شيء وكل إنسان. وشعرت بوجهها ينكمش بازدراء. وفي تلك اللحظة نظر إليها جون. وشاهد التعبير الذي لم تستطع إخفاءه. فحثها قائلاً:

- اخرجي ما عندك يا حلوتي. ماذا يقلقك الآن؟ لقد أغضبتك الليلة الماضية. أليس كذلك. لم أكن أنوي أن أخبرك هكذا. ولكن إذا كان هذا يعزّيك، فأنا لم أستطع المضي في خداعك. لقد التقيت بالعديد من الناس في رحلاتي، ومن السهل التعامل مع الكثيرين. ولكنني لم ألتق بمثلك من قبل.

- وماذا يعني هذا؟

- ارتاحي.. أعني أنني لم ألتق بأحد يمكن الثقة به وصادق مثلك

من قبل. لذا كان عليّ أن أخبرك الحقيقة، هذا كل شيء.

- وهل من المفترض أن أشكرك؟

- لا.. فأنا أقول لك الحقيقة فقط.

- وهذا سيكون نوعاً من التغيير لك. أليس كذلك؟

- أعتقد أنه من الافضل أن نأكل. ستشعرين بنفسك أفضل بعدما تأكلين.

- لا.. لن أشعر أفضل أبداً. في الواقع إنني لست جائعة.

ووقفت تتطلع إليه من عند باب المطبخ الصغير، ووقف هناك بدوره يحدّق بها وشيء ما في عينيه يقلقها.. هل كانت الشفقة؟ إنها ليست بحاجة للشفقة، ليس منه على كل الأحوال.

- بل ستأكلين.. عودي إلى الطاولة. فالفطار جاهز.. هيا اذهبي.. سأضعه على الطاولة.

- أنا لست طفلة... فلا تعاملني كطفلة!

- إذاً، لا تتصرفي كطفلة.

- أعتقد أنك تظن أنك على صواب دوماً. وأراهن أنك مسرور من نفسك.. أليس كذلك؟

- أتعنين لأنني استطعت إحضارك إلى هنا؟

- اجل.

- ليس بالضبط. ولماذا؟ أنا أفعل هذا لمساعدة شخص ما.. لمساعدتكما معاً.. قلت إنك يائسة للخلاص، هل كنت كاذبة؟

- انت تعلم أنني لم أكن كاذبة، ولكن.. أنا.. أنا...

وتوقفت، وهي على وشك البكاء. شعرت بقلة الحيلة، غير قادرة على أن تضع في كلمات ما تحتاج لقوله، كي تدفعه أن يفهم...

- لست بحاجة إلى نوع مساعدتك. ولا مساعدته، ذلك الرجل.. ٢ س.

وانحدرت دمعة وحيدة وتدحرجت على خدها نحو ذقنها. ورفعت اصبعها لتمسحها. فقال بلطف:

- لا تبكي. لا حاجة للبكاء. هل تريدين منديلاً؟

- لا.. أنت لا تفهم..!

- إنني أحاول، صدقيني! ولكنك تصعبين الأمور. حسناً، أعلم أن كل ما حدث كان صدمة كبيرة لك.. وأستطيع تقدير هذا. ولكن لماذا لا تسترخي وتحاولي أن تأخذي الأمور براحة؟ أنت بعيدة عن أهلك بالتبني وذلك الوحش القزم ماتياس. وأنت آمنة معي، وقريباً ستذهبين إلى أميركا للقاء.. آر. أس.

- لا.. لن أفعل.. لن أفعل!

- ليس لديك خيار آخر.

ونظرت إليه بعينين واسعتين. هكذا يفكر إذاً: ليس لديّ خيار. وبطريقة ما اختصر هذا كل مخاوفها، كل تفكيرها، في جملة قصيرة وحيدة. وتساءلت ما إذا كان المرء يستطيع فجأة أن يكره شخصاً ظن أنه أحبه.

ووقفت مستقيمة بتحدي، لم تكن تدرك أنها في تلك اللحظة كان يحيطها وقار ملكي بوقفتها هذه، فالصعاب التي مرت بها في حياتها، التعاسة الكبيرة، قد أعطتها نوعاً من القوة. وراقبها جون، وكأنه يرى كل هذا فيها، وكأنه يعرف مشاعرها، وساد حوله جو من الترقب، وكأنه يعرف أيضاً ما ستقوله! وقالت:

- أنت لا تعرفني.. وأنا لا أعرفك، ولا أريد أن أعرفك. أنت غريب قدم إلى حياتي بالأمس فقط، وأنقذني، كما كنت اظن، ولكن لا تقل لي ان لا خيار أمامي.

واتقدت عيناها كالنار، واستدار جون نصف استدارة وكأنه يتقي لذع كلماتها. وأمسكت بذراعه وهزتها قائلة:

- هل أنت مصغ إليّ.. هل سمعت ما قلته؟

ولم يحاول سحب ذراعه من يدها. بل مدّ يده الأخرى وأطفأ الطباخ.

- أجل سمعتك.. كان اللحم سيحترق...

- اللعنة على الطعام!

وجذبت ذراعه، فنظر إلى ذراعه ثم إليها وقال ببرود:

- ستؤلمينني بعد قليل...

- ليس بالقدر الذي أرغب به.

- وماذا فعلت لك؟

- أكثر مما يكفي. حسناً.. سنتناول الفطار، ثم ستأخذني الى الجانب الآخر من هذه الجزيرة، وستتركني هناك، هل فهمت هذا سيد جون كاليهن.

- تماماً.. وماذا ستفعلين بعد ذلك؟

- سأتدبر أمري!

- بماذا.. وكم معك من المال؟

- ما يكفيني.

- حقاً.؟ لم الاحظ هذا.

- وهل فتشت ملابسي؟

- أجل..

- وكيف تجرؤ على هذا؟

- أنا آسف. كان عليّ أن أتأكد.

- تتأكد من ماذا؟ إنني لن أستطيع الهرب؟ وهل اكتفيت؟ حسناً، لن أحتاج للمال. سأجد عملاً في هاملتون ريف في أحد الفنادق، أو في متجر للسواح. وسأجمع المال الكافي للسفر...

- السفر إلى أين؟

- إلى انكلترا. لو اضطررت، وليس إلى اميركا. عندي أقارب في لندن.

- هل هذا صحيح؟ لماذا لم تكتبي لهم إذاً؟

- هذا ليس من شأنك.

- اظن أنه شأني. أراهن أنك لا تعرفين أين هم. فكيف سيساعدونك؟

- سأجدهم.. سأجدهم.. أعلم أنني سأجدهم...

- ميلا... انظري اليّ.. لا تقاوميني. هل تعتقدين أنني سأدعك ترحلين؟ بعد أن قدمت كل هذه المسافة لأجلك؟ وهل تعتقدين أن بإمكانك خداعي؟

ولم تقاومه، بل تركته يمسك بها، ونظرت إليه وعيناها تلمعان بالدموع. وقال لها بنعومة:

- أوه يا ميلا... ميلا، ماذا سأفعل بك؟

- اتركني أذهب. قل له إنك لم تجدني...

- لقد تكلمت معه الليلة الماضية بالاسلكي وقلت له إنني وجدتك. على كل، لا أستطيع الكذب...

- تكذب فقط معي.

- لم أكذب عليك حقاً... وهل تظنين أنني سعيد بما فعلت؟

- أجل، أظن أنك كنت تهنىء نفسك على براعتك.

- لا، لقد كنت سعيداً فقط لأنني سأخرجك من هناك دون صعاب، هذا كل شيء.

- صعاب؟ وماذا تسمي ما حدث مع ماتياس؟ تبادل حديث قصير؟

- هو.؟ إنه لا شيء. احتاج إلى درس، إنه أبله شرس.

- أعرف هذا، ولكن ألا تدرك بأنك شرس أيضاً بطريقة مختلفة؟

واخذ جون نفساً عميقاً ثم أخرجه ببطء. وقال وعيناه تلمعان وفمه

يرتجف وكأنما يكبح ضحكة:

- واو.. يا إلهي.! لديك جواب سريع على كل شيء. ألست هكذا؟ وسميتك ساندريللا!

ثم بدأ يضحك، فصرخت به ميلا...

- لا تكن مستهزئاً. ولا تغير الموضوع! تستطيع إنزالي على الطرف الآخر من الجزيرة، وسأشكرك وأودعك. ثم اتصل بـ «آر. اس» وقل له إن ليس لديّ الرغبة في مقابلته...

- اوه.. طبعاً أستطيع...

- هل أنت خائف منه.

- أنا؟ يا حلوتي أنا لا أخاف من احد.

- إذاً لا مانع عندك، هل ستفعل؟

ونظرت إليه وابتسمت له بلطف كبير، وقد نسيت الدموع. ولم يجبها، بل نظر إليها، واصبحت عيناه بلون داكن ساهم. ثم قال:

- أتعرفين.. لك نفس أخلاق ذلك العجوز...

- أنا لست كذلك.. لا تقل هذا! أنا لست مثله!

- أوه.. أجل... أنت مثله. أنت بالضبط...

وأطلقت قبضتها لتلكمه، لو أصابته لجعلت فكه يتورم، ولكنها لم تصل إليه، فقد حرّك رأسه بعيداً وبسرعة، ثم أمسك بها. وقال هازئاً:

- أعصابك يا فتاة... لا تقاتلي مثل...

- ولكنني أفعل.

وضربت رجله الحافية. وقوست جسدها لتجبره على تركها. وفي اللحظة التالية أصبحت ملتفة وظهرها نحوه ولم تعد تستطيع الحراك، وهمس في أذنها بنعومة:

- والآن تخلصي إذا استطعت يا صغيرة.

- اتركني أيها الوحش!

- عندما تتصرفين كفتاة سأتركك.

- أتصرف؟ سأريك كيف أتصرف! سأ . . .

وقاومت، وتلوت، وجهدت لتفلت نفسها، ولكن النتيجة كانت وكأنها طفل صغير. كانت قوية، ولكنه أقوى بكثير. وأصابها الإرهاق، ولهثت وتبعثر شعرها، وارتخت بعد لحظات.

- هكذا أفضل، الآن اجلسي بينما أصب الطعام.

ودفعها نحو المقعد. فحدقت به وهو يضع الصحن أمامها وقالت:

- لن آكل!

- كما تشائين. ولكنني سآكل. .

وجلس وبدأ يأكل. وتألمت معدة ميلا من الفراغ. واشتهى جسدها الطعام، ولكنها قاومت كي لا تلتقط الشوكة والسكين وتأكل. ولكنها لم تستطع مقاومة القهوة، فالتقطت الكوب عندما دفعه نحوها. ونظر إلى صحنها المليء بالطعام.

- لن تأكلي؟

- لا. .

- حسناً. . يجب أن لا يضيع سدى.

وأخذه من أمامها، والتقط الشوكة وبدأ يأكل ما فيه. وكان هذا كثيراً على ميلا لتحتمله، فأخذت كوب القهوة وصعدت إلى سطح المركب، ووقفت عند سياج المركب ونظرت إلى الجزيرة. كانت قريبة ولكن بعيدة. هناك الحرية من كل شيء عرفته في السنوات الماضية. ولكن ما النهاية؟ صحيح أنها لا تعرف أين يعيش أقاربها في انكلترا، هذا إذا كان قد بقي أحد منهم. ليس لديها جواز سفر، ولا مال، لا شيء سوى مواهبها وقدرتها على العمل الشاق. ألن يكون أسهل عليها أن تستسلم وتذهب إلى أميركا مع جون؟ هناك ستكون بأمان، ومرتاحة، ولها جد. . . وتكور فمها للذكريات التي كانت أمها

قالتها لها:

- روبرت ستارتنغ طاغية من أسوأ الأنواع. إنه يملك كل شيء، وكل إنسان. وعندما يقف شخص في وجهه، يصبح دون رحمة كزعيم للمافيا ويتخلص منه. عندما التقيت بوالدك كنت أعمل عند العجوز، وحالما عرف أن ابنه كان مهتماً بي طردني بعد ساعات، وقال إنني لن أحصل على أية وظيفة أخرى عند أي شخص في أميركا. وهكذا فعل. ولكنه لم يعلم أن هذا كان دافعاً لابنه راين كي يتحرر منه، ويصبح مستقلاً. كنت أظن بعض الأحيان أنه تزوجني نكاية بأبيه يا ميلا.

وامتلأت عينا ميلا بالدموع وهي تتذكر هذا الحديث، هكذا كانت نوعية هذا الرجل. هذا الرجل الذي أرسل جون عدة آلاف من الأميال ليستعيدها. كانت قد شاهدت بعض صوره، وهذا كل شيء. إنه يملك سلسلة من المخازن التجارية في كل اميركا، وأعمال بريدية تعطي الملايين، وعدة صحف. كان يملك كل شيء يمكن للمال أن يشتريه. . ما عدا حفيدته. وهذه أنا.

وسمعت وقع خطوات جون يصعد إلى السطح فالتفتت إليه فقال وهو يربت على بطنه «آه. . لقد كان لذيذاً».

- وماذا تريد أن نفعل الآن؟

- سؤال جيد، ميلا. . ماذا تريدين أن تفعلي

- لقد قلت لك. .

- بعيداً عن التلويح لك بالوداع. نريد شراء الطعام. . ليس لأنك تأكلين الكثير، ولكنني أحتاج للطعام. هل أنت صائمة عن الطعام؟ يا حلوتي.

- لا. . لا أريد، هذا كل شيء. وتوقف عن دعوتي بحلوتك.

- حسناً ميلا. . إضافة للطعام أظن بإمكانك شراء بعض الملابس.

- لا تحاول رشوتي.. تستطيع شراء البعض لنفسك.

قالت هذا بقليل من الاقتناع.. ملابس! ونظرت إلى ما ترتديه، شورت وتي شيرت، وتنهدت، فقال:

- طبعاً أستطيع شراء ملابس.. سنتسوق معاً. هل تروق لك هذه الثياب «اليونيسكس».

- وماذا تعني هذه الكلمة.

- ألا تعرفين؟ كم أنت بعيدة عن المدينة، إنها تعني عدم التفريق بين الجنسين، ولكن لا تقلقي لا أستطيع تصور أحد قد يخطىء ويظنك صبياً.

- ولا أستطيع تصور أحد يخطىء بك كفتاة. ليس بهذه السيقان.

واستدارت عنه، وبدأ يضحك، بصمت أولاً، ثم اندفع بالضحك بصوت مرتفع. واخذ عقلها يعمل، لن يؤذيها أن تحصل على شيء أنيق تلبسه، ولا أن ترى الجزيرة، لأنها لو ناقشته اكثر فقد يقرر تركها في المركب ويذهب لوحده. وقالت له:

- يمكنني شراء بعض الثياب، ولكن ستدفع ثمنها أنت. بالطبع

- طبعاً!

واستدار عنها وذهب نحو غرفة القيادة. وقال:

- أيتها المدينة.. ها نحن قادمان.

وأدار المحركات، لترعد، وراقبت ميلا الشاطىء يبتعد والمركب تعود إلى عرض البحر تحضيراً للرسو في الجزيرة. وراقبته يتحرك عند لوحة القيادة، وكان يصفّر من جديد. نغم لم تستطع معرفته، وتساءلت ما إذا كان سيستمر في التصفير بعد أن تتركه.

☆ ☆ ☆

٣ - الهروب

الأرصفة الملساء دبت قاسية وحارة تحت قدميها العاريتين، ومن حولها كانت جموع الناس: الطويل والقصير، الرفيع والسمين، رجال ونساء، بيض وسمر. يختلط السياح وأهل البلاد بتآلف من الألوان جعل ميلا لاهثة الأنفاس، فلم تكن قد شاهدت هذا العدد من البشر في حياتها، مجتمعين دفعة واحدة، وضعفت عزيمتها. كيف ستستطيع البقاء هنا.. لوحدها؟ ونظرت إلى خلفها، إلى عشرات المراكب الراسية في الخليج، ثم استدارت لتلحق بجون. كانا كأنهما في مدينة مصغرة: حوانيت، فنادق. بيوت للإيجار، مطاعم سوق للأطعمة في الهواء الطلق.

على بعد نصف ميل من الشاطىء، كانت باخرة ركاب ترسو، مركب عملاق، متحفظ ووقور وهو ينتظر الركاب للعودة إليه. بإمكانها أن تتسلل على متنه معهم لو أن عندها ثياباً لائقة. وتطلعت وراءها إلى القارب الصغير الذي ينقل الركاب منه وإليه، الأمر بسيط في الواقع.

- هاي، انتبهي أين تسيرين يا حلوتي.!

للحظة، ظنت أن المتكلم هو جون، ولكنها شاهدت سائحاً أميركياً يرتدي قميصاً برتقالياً مشجراً، وشورت «برمودا» أزرق يمسك بها بعد أن كادت تصطدم به.

- آسفة!
- لا بأس.. ولكنني فقط لا أريد أن أتركك تقعين.
- كنت أنظر إلى الباخرة.
- اسمها كونكورديا.. إنها رائعة.. أجل. هل أنت هنا لقضاء اليوم ايضاً.
- لا.. هل أنت من ركابها؟
- أجل.. هل تعيشين هنا؟
في أية لحظة، قد يلتفت جون، كان يتفحص إحدى واجهات المحلات باهتمام.. ولكنها لا تستطيع أن تكون واثقة منه. وأجابت بسرعة:
- لا.. أنا زائرة هنا، مثلك. في أي وقت تعود إلى الباخرة؟
- قبل الغروب مباشرة..
- شكراً..
مغيب الشمس... لا يزال الوقت طويلاً. وحاولت السير ولكنه أمسكها:
- هل أنت بخير يا حلوة؟
وتحرك جون، واستدار ليراها، فشعرت بالخوف.
- أجل.. أنا بخير، شكراً، يجب عليّ...
- ميلا؟
واستدار الاميركي لصوت جون، الذي أتاه من فوق كتفه.
- أجل.. انا آتية حالاً يا جون.. وداعاً..
- وداعاً.
ولاحظت أن الاميركي وقف يحدق بها، وقد أمسكها جون بذراعها وسار بها مبتعداً. وهو يسألها بلطف:
- وهل أستطيع أن أسأل ماذا كنت تفعلين؟

- لا شيء، كنت أتحدث معه فقط.
- هكذا لاحظت.. يجب عليك ان لا تتحدثي مع رجال غرباء.
- كان يجب أن افكر بهذا عندما رأيتك على الشاطىء. أليس كذلك؟
ولم يجب بل قادها إلى الواجهة التي كان ينظر فيها.
- حسناً.. أترغبين في الدخول؟
- أترغب أنت.. هيا بنا..
وارتفعت كومة المشتريات على الطاولة، وشعرت ميلا بالدهشة والدوار تقريباً. وأحست أن عليها الشعور بوخز الضمير، إلا أنها لم تفعل. وعندما أضاف إلى المشتريات أخيراً مايوه بيكيني ازرق قالت له «ألن تشتري شيئاً لنفسك» فأجاب «فيما بعد».
في الخارج وقف ينظر من حوله وكأنه يفكر. ونظرت ميلا إلى كومة المشتريات التي يحملها، وعندها شعرت بوخز الضمير، متأخرة قليلاً.
- هل دفعت ثمن كل هذا من جيبك.. أم.. منه..
- لا إنها مني.. ولا تقلقي فليست غالية الثمن.
- لا.. أصدقك!
- لا تصدقيني بأنها ليست غالية أم بأنني دفعت من جيبي؟
- الاثنين معاً.. إنه يوظفك.. أليس كذلك؟
- أجل.. بطريقة ما.
- وماذا تعني «بطريقة ما».
- لنذهب ونأكل شيئاً قبل أن نقع من الجوع.
- لا.. أريدك أن تجيبني قبلاً.
- أنا أرد له جميله.. هذا كل شيء.. تعالي.. تبدين شاحبة..
- جميل؟ ما نوع هذا الجميل؟

ـ إنه دين شرف. لقد ساعد آر. أس. والدي مرة عندما احتاج لمساعدة. وأنا لا أنسى مثل هذه الأشياء، أبداً.

كان تصريحاً واقعياً، تحدث به بهدوء، وبوقار جعل ميلا فجأة تدرك شيئاً: إن هناك شيئاً مخفياً في شخصية هذا الرجل، أكثر مما يظهر على السطح. وبلحظة، وكأنها التقطت أثر شخصية عميقة، ومعقدة: إنه يضحك بسهولة، ومع ذلك يبدو ذو طبع هادىء ورابط الجأش في المواقف الحرجة، وكان قوياً بشكل غير عادي ومع ذلك فهو لطيف، ولا ينسى أبداً ديناً عليه. ونظرت ميلا حولها في الشارع. لم يبدو أن احداً يهتم بهما، إذاً إلى من ستلجأ لو هربت منه؟ وأغلقت عينيها وقد أدمعتها أشعة الشمس، وأحست بأنه أمسك ذراعها.

ـ اثبتي!

وعندما فتحت عينيها، بدا كل شيء مختلط الألوان من حولها. فشهقت.

ـ إلى الطعام، وبسرعة. أنت غبية لأنك لم تفطري.

وقادها نحو مطعم في أحد الفنادق. وخلال دقائق كانا يجلسان إلى طاولة تشرف على الشارع، ونظر إليها جون:

ـ سنأكل... ثم نتحدث. جيد؟

وهزت رأسها مدركة أنها ستتمكن من التفكير بجلاء أكثر عندما يملأ الطعام معدتها الخاوية.

ـ هل ترغبين في المزيد؟

ـ لا، شكراً.

وابتسمت له.. يجب عليها، بطريقة ما، أن تأخذ منه المشتريات.. وستواتيها الفرصة، إنها واثقة من هذا، وعندما تستطيع أن تتجنبه، عندها ستفكر بالخطوة التالية. ماذا ستكون هذه الخطوة؟

لم يكن لديها فكرة. فطالما حلمت بالخلاص من أهلها بالتبني حتى أن هذه الفكرة الجديدة بالحرية كانت مثيرة لها، ومع ذلك فلم تكن كما تصورت، فبينما لم تكن تعرف بمن ستضع ثقتها، برز غريب أمامها وكأنه استجابة لصلواتها. ونظرت إليه. كان بالنسبة لها وكأن فارس خارج من صفحات كتاب تاريخ. ونظر إليها في تلك اللحظة، وكأنه شعر بنظرتها. وابتسم.

ـ ألا تستطيعين إبعاد نظرك عني؟ لا بأس يا حلوة... كل الفتيات يعجبن بي...

ـ أنت مغرور. وأظن أنني قلت لك...

ـ أن لا أدعوك حلوتي. أجل.. تذكرت.. سامحيني...

ولكن الأمر لن يطول، وعندها ماذا سيفعل؟ هل سيعود إلى آر. اس. ويعترف له بفشله؟ هذه ليست مشكلتها.

ـ ميلا.. هل أنت بخير؟

ـ أجل.. لم آكل في حياتي كما أكلت الآن.

ـ اتركيه إذاً، واذهبي لتغسلي وجهك.

ـ فكرة جيدة.. هل أستطيع تغيير ثيابي؟

ـ طبعاً.. ولماذا لا؟ سأنتظرك هنا.

بعدها، كان كل شيء سهلاً. فالتقطت الثياب وخرجت من غرفة الطعام، واتجهت إلى حمام السيدات. فدخلته ورأت باباً آخر يقود إلى الخارج وبعد لحظات كانت خارج الفندق. ووقفت لحظة تلتقط أنفاسها، فقد حدث كل شيء بسرعة حتى أنها لم تصدق نفسها. لقد أصبحت حرة، حرة حقاً. ودون أن تنظر خلفها سارت بسرعة، أفضل مكان للاختفاء لبرهة من الوقت، كان السوق، وهذا ما سيعطيها وقتاً للتفكير، والتخطيط للخطوة التالية.

وتجاوزت الشمس منتصف السماء، ولكنها لا زالت حارة، ومع أن

ميلا معتادة عليها، إلا أنها كانت تشعر بالتعب، وتاقت لأن تجلس في مكان ما وتتناول شراباً بارداً.

وقالت لنفسها بثبات: توقفي عن هذا! ونقلت ما تحمله من ثياب إلى يدها الأخرى وأخذت تفكر بماذا ستفعل. وبدأ الشعور بالحرية يتبخر في وجه حقيقة طاغية: ليس لديها أي مال.

ثم، ومن على بعد، شاهدت الميناء، وخفق قلبها. لن يفتش عنها هناك.. أو إذا كان قد فعل فهو قد غادره الآن، وتستطيع أن تتسلل إلى الباخرة وتتناول بعض الشراب. وبدأت ميلا تشق طريقها عبر السواح، وهي تراقب من حولها بعين مفتوحة لترى ما إذا كان هناك طيف رجل أسمر طويل، تستطيع تجنبه بين الناس. لا بد أن جون الآن يبحث في المحلات والفنادق، لأنها كانت قد أوضحت له نيتها بالبحث عن وظيفة. فليفتش قدر ما شاء! لا شيء يستطيع أن يفعله ليجبرها على السفر معه إذا لم تكن تريد هذا، وقالت لنفسها هذا بقناعة لم تكن تشعر بها، فجون كاليهن يبدو رجلاً يحصل دائماً على ما يريد. وبدأت تشعر بالتفاؤل، وانتظرت مختبئة بين الأشجار عند طرف الشارع، تراقب المراكب فوق الماء. ها مركب جون. اسمها محفور عليها بأحرف ذهبية «المغامر الأسمر». كل شيء على متنها هادىء. ومع ذلك انتظرت، تقاوم عطشها، مستعدة للبقاء حيث هي إلى أن تتأكد من أن كل شيء آمن. من الواضح أن ليس هناك من أحد على متن «المغامر الأسمر»، وسارت ميلا بين الأشجار بهدوء، وثقة، نحو المركب.

وفي الدقيقة الثالثة، كانت آمنة داخل الغرفة. ووضعت الملابس على المقعد الخشبي. ثم دخلت المطبخ الصغير. وكانت تنهي الكوب الثاني من الماء عندما اهتز المركب... وسمعت أصوات رجال. وجمد الدم في عروقها، ووضعت الكوب من يدها ونظرت

حولها باحثة عن طريق للهرب، ولم يكن هناك أي مفر، فقط كوة صغيرة لا تأمل أبداً أن تنفذ منها، ولو أنها نحيلة، وأسرعت إلى الباب لتقفله، وعندما وصلت إليه، وأوشكت ان تدفعه، أمسكته يد رجل، ونظرت إليه، لم يكن جون، ولا رجل بوليس. ولكن ماتياس، ومعه زوج أمها رالف ساندز، رجلان متجهما الوجه دخلا الغرفة وصفقا الباب وراءهما ووقفا ينظران إليها. وتكلم رالف:

ـ حسناً، ها أنت اخيراً. لقد أتعبتنا وراءك. أين هو؟

ـ لن أعود معكما.

ـ بل ستفعلين، أين الرجل الذي كنت معه؟

وحدّقت بهما دون جواب. ووقف ماتياس وذراعاه على وسطه، ينظر إليها بغضب خطير. ورالف، الأهدأ من ابن زوجته، قد شحب وجهه من الغضب.

ـ ألن تجيبي؟ أتظنين اننا لاحقناك الى هنا للتسلية؟

لن يستطيعا أن يخرجاها من المركب بالقوة.. ام هل يقدران على هذا؟ ما داما قد تحملا مشقة ملاحقتها إلى هذا الحد، فلا بد أنهما يريدان عودتها بشكل حاسم.. ولكن لماذا؟

ـ لا.. لا أتصور أنكما تفعلان شيئاً للتسلية. ولكن لماذا أنتما ورائي كل هذه المسافة؟

كان عليها أن تبقى هادئة. فكلما أبقتهما يتحدثان أكثر، كلما كان لديها وقت أطول للتفكير.

ـ أنتم لا تريدوني حقاً في الفندق، تريدوني فقط للمساعدة الإضافية. لقد أوضحتم لي هذا، كلكم، وبالتأكيد تستطيعون إيجاد شخص آخر للعمل معكم.

فقاطعها ماتياس، وعيناه شاحبتان بالغضب.

ـ أنت من نريدك، أيتها الحمقاء الصغيرة. يجب أن تكوني هناك

عندما...

وصرخ به رالف:

- حسناً يا ماتياس، هذا يكفي. فالتفسير يأتي فيما بعد.

كان هناك شيء ما، شيء مخبأ، وكاد ماتياس أن يكشفه. وأحست ميلا بهذا وكأنه مكتوب على وجهيهما، وشعرت أن هذا جزء من كابوس. في البداية جون، والغموض حوله، والآن هذان.. هذا كثير. وجلست فجأة، مدركة أنها ستكون آمنة لدقيقة أو اثنتين.. إذا بقيت هادئة.

- تفسيرات؟ ما هي هذه التفسيرات؟

وابتسم رالف. ولكن هذا، كان أكثر تخويفاً من غضبه.

- لا شيء.. مجرد مسألة عمل صغيرة حدثت، تتعلق بك.

- ولكن كيف عرفتما أين يوجد المركب؟

وأجابها ماتياس:

- كنا نراقب، لاحظت الاسم الليلة الماضية عندما أتى صديقك ليأخذك. وقد يعود قريباً. إنه رجل قذر...

ونظر إليه رالف من وراء نظارته:

- أجل لقد قلت لي هذا.. أنت على حق.. هيا بنا نذهب.

- علي أن اغتسل أولاً.. ثم أريد أن آكل، فأنا أموت جوعاً.

وبدأت تشعر الآن باليأس عندما فكّرت أن الرجل الوحيد القادر على التعامل مع هذين الرجل، يبحث الآن عنها في الجزيرة يائساً ودون جدوى.

- فيما بعد، وليس الآن.

وسمعت صوتاً خفيفاً في الخارج، من الممكن أن يكون صوت ارتطام الماء بجسم المركب، ثم لا شيء، لا صوت، ولا حركة، أملها الوحيد الآن في التسبب بأكبر قدر من الضوضاء والمشاكل وهم

يغادرون المركب. ولكن هل سيلاحظها أحد؟ ميلا كانت قد حصلت على ما يكفيها من الفشل في حياتها حتى أنها لم تكن تتوقع الأفضل، ولكن بإمكانها أن تهرب، أن تقفز الى الماء وتسبح. وصممت على فعل شيء وهي تتحرك ببطء، سوف تهرب منهما. وتباطئت سعياً لكسب الوقت. ووقفت والتقطت صرة ثيابها.

وفتح ماتياس الباب وقال رالف:

- اخرج أنت أولاً يا ماتياس ثم ميلا ثم أنا.

ولكن الباب اظلم، وقد سده جسم رجل. جسم ضخم قوي، كان ينتظر على السلم عند السطح، يقف بهدوء وبرود... ويبتسم.. فعلاً يبتسم. وقال جون بنعومة:

- حسناً الآن... لديّ زوار مفاجئون على متن مركبي!

وصرخت ميلا.. «جون!» لم تكن تأمل أن تراه ثانية، ونظر من فوق رأس ماتياس إليها.

- هل آذوك؟

- لا... ولكنهم أتوا ليأخذوني...

- هل هذا صحيح؟

وتحرك متقدماً نحوهم، ودون خيار خطا ماتياس إلى الخلف داخل الغرفة، وهو يختبىء تقريباً خلف رالف، الذي بدا أنه قرر أن يتولى الأمر بنفسه.

- اجل.. لقد أتينا من أجلها.. ايها السيد الذي لا أعرف اسمه.

- اسمي كاليهن... جون كاليهن... واصدقائي يدعونني جون. أما أنت فبإمكانك دعوتي سيد كاليهن، وأنت على ما أعتقد والد ميلا بالتبني؟

وتفرس جون برالف من فوق إلى تحت ببطء.

ـ أريد أن أذكرك أنك قد اقتحمت مركبي.. ولن تقول لي ماذا افعل.

ـ كلما غادرناه كان أفضل، فلماذا لا تتركنا نخرج؟

ـ بكل سرور.

وتنحى جون جانباً ومد ذراعه بإيماءة كريمة...

ـ هيا اخرج.

ـ مع ميلا...

ـ دون ميلا.

كان صوته منخفضاً، حتى ليظن المرء أنهم يناقشون حال الطقس، وشعرت ميلا أكثر من قبل وكأنها ستستيقظ من حلم مخيف في أية لحظة. ولكنه لم يكن حلماً، كان حقيقة، وجون كان قد تعامل بكل فعالية مع ماتياس، ولكنه لم يقابل رالف من قبل، ورالف كان مختلفاً، قوي وقاسي ولا يخاف من أحد، ولن يقبل بأن يطرد من المركب بسهولة.

ـ أود أن أذكرك بأنها ابنتي بالتبني.

كان صوته هادئاً، ربما يكون تقدير الوزن ليس من جانب واحد فقط. لم يكن هناك شك بمقدرة جون، ورالف مع كل قوته، ليس غبياً.

ـ وفوق كل هذا أنا مسؤول عن حياتها.

ـ بعيني خنزير. أنا واثق أنك مهتم بها كما أنا مهتم بك. وهذا يعني لا شيء. أيها الأخ.

ولاحظت أن رالف قد احمّر لونه تحت سمرة بشرته، لو كان هدف جون أن يغيظه، فقد نجح. وقررت أنها تحملت ما يكفي منهم، منهم جميعاً... فقالت:

ـ أنا هنا، أم أن الكلام شغلكم فنسيتموني؟ أنا.. ميلا.. وأنا

كبيرة ما فيه الكفاية لأقرر لنفسي ماذا أفعل.. لن أعود إلى الفندق معكما، ولن أذهب مع جون. سأبقى هنا في هاملتون ريف. وها أنتم تعرفون ما أنوي الآن.

وساد صمت قصير، ثم تكلم جون.

ـ لقد سمعتما يا سادة. ولهذا الأفضل أن تمضيا بسلام قبل أن أرميكما الى الخارج.. جيد!؟

وتحرك رالف نحوه وقال:

ـ أمسك بميلا يا ماتياس، لقد اكتفيت من هذه المهزلة...

وضرب جون.. بقوة على فكه. حدث هذا فجأة ودون توقع، على الأقل من ميلا، التي كانت تستعد لتحذره، لتصرخ، لتمنع إيذائه، ثم عرفت أنها يجب أن لا تقلق. فالضربة هزت جون قليلاً، ثم انتهى كل شيء، ورالف يحاول لملمة نفسه عن أرض الغرفة، حتى أنها لم تشاهد جون يضربه، ووقعت نظارته، وبينما هو يفتش عنها، اندفع ماتياس نحو جون، الذي ضربه بين كتفيه، وهكذا أصبحا معاً على الأرض.

ـ أتريدين المحاولة أنت ايضاً؟

ومن دون منطق، أصبحت غاضبة منه لأنه ضربهما، مع أنه لم يكن المعتدي، بل كان يدافع عن نفسه. وقالت:

ـ أراهن انك تحب أن افعل، أليس كذلك؟ سيكون أمامك فرصة لتضربني أيضاً...

ـ لا... لن افعل. لقد قلت لك هذا. أنت آمنة تماماً معي، ولكنك تبدين كقطة شرسة تتطاير شرراً وغضباً. وقد يريح بعضاً من غضبك أن...

ـ لقد اكتفيت منكم جميعاً! أنت تتكلمون عني وكأنني قطعة أثاث. وكيف تعتقد أنني أشعر؟

وأغلقت قبضتيها بغضب، وهي تراقب رالف يحاول النهوض ثم يتهاوى على المقعد. وقال جون وهو يرفع رالف على قدميه:

ـ أعتقد أنكِ تشعرين بالراحة لأنك لست عائدة معهما.. والآن انطلقا.. انتما معاً قبل أن أرميكما في البحر.

ودفعه أمامه على السلم إلى السطح، وعاد إلى ماتياس الذي اصفرّ وجهه من الخوف وفعل به نفس الشيء. ولحقت بهم ميلا لترى جون يقف في مواجهتهما ويداه طليقتان استعداداً، وهو يتحدث إليهما، واقتربت محاولة أن تسمع فالتفت جون إليها وقال آمراً:

ـ انزلي إلى تحت، هذا ليس من شأنك.

ـ بل هو من شأني، ولا تظن أنني سأبقى تحت لتتمكن من إدارة المحركات.

ومد يده وأمسك بها. ليس بقوة، ولكن بقدر كافٍ ليمنعها من الحركة.

ـ حسن جداً، ابقي هنا... معي...

والتفت إلى الرجلين وقال، مكملاً ما كان يقول لهما:

ـ في المرة القادمة إذ رأيتكما لن أكون لطيفاً. سأمزقكما إلى قطع صغيرة وأرميكما إلى القرش.. أتمنى أن تكونا قد فهمتما الرسالة؟

وتحرك رالف ببطء ودون وعي ولكن ميلا لاحظت أنه كان خائفاً، مع أنه ما زال مليئاً بالغضب.

ـ الأمور ستختلف يا ميلا، أعدك. تعالي الى المنزل معنا وسننسى كل شيء....

ولم تعلم ميلا إذا كان عليها ان تضحك ام تبكي:

ـ مختلفة؟ وبأية طريقة؟ أتعني أنك ستعاملني كإنسان لمجرد التغيير؟

ـ أعلم أن لينا قاسية بعض الأحيان، ولكن العمل شاق...

ـ أعلم هذا، فأنا اقوم بمعظمه.

ـ حسناً، سنعمل جميعنا أكثر. وسيصبح كل شيء سهلاً عليك.

كان وكأنه غريب يتكلم. وجالت بنظرها بينه وبين ماتياس الحزين المكبوت، وتذكرت شيئاً كان قد قاله مؤخراً «انتظري فقط!» وكأنه يعلم شيئاً لا تعلمه هي، ولم يكن عندها الوقت لتسأل عنه. وقال جون:

ـ يبدو أنك متشوق لتأخذ ميلا معك، أليس هناك سبب لهذا الدفء القلبي نحوها، أليس هناك سبب؟ مثل المال؟

وساد صمت متوتر، ونظرت ميلا إلى ماتياس. ما قاله جون لم يكن يعني لها شيئاً.. ولكن الآن، ملاحظة عيني ماتياس، وحركة زوج أمها وهو يضع يده على وجهه ويخلع النظارة، علمت أن هذه الكلمات ليس مبالغاً فيها أبداً.

وقال رالف:

ـ هذا غباء.. ألا نستطيع بحث الأمور بطريقة متمدنة أكثر؟ نحن معاً رجلان يعرفان الدنيا...

الكلمات كانت تنطلق منه بسهولة، وفكرت ميلا! أنا أرى جانباً مختلفاً من هذا الرجل، وهو جانب لم يعجبها أكثر من الماضي.

فقال جون:

ـ وعما ستتكلم؟.. ميلا قد قررت و...

وقاطعه ماتياس بحقد:

ـ ولكنها لا تريد الذهاب معك أيضاً.

ونظر إليه جون بنظرة غاضبة:

ـ اصمت أنت يا ولد، إلى أن نتكلم معك.

ـ أنا لن أفعل هذا...

وأسكته رالف بإشارة من يده «اصمت يا ماتياس».

ـ لن اصمت! لماذا لا تقول لها وننتهي من الأمر؟
ـ يقول لي ماذا؟
وتصاعد غضبها. كانوا يتكلمون عنها، الثلاثة معاً، وكأنها طفلة، شخص لا حساب له، وحتى الآن عندما تتكلم، ينظرون إليها وهم يتساءلون عما إذا كان يجب أن يردوا عليها.
ـ قلت لك، قل لي ماذا؟
وجذبت يدها من قبضة جون وقالت له:
ـ أنا قادرة تماماً على الوقوف هنا دون أن تمسكني.
واستدارت الى ماتياس، كان الحلقة الضعيفة في هذه السلسلة. وتستطيع التعامل معه.
ـ هيا.. قل.. لا تهتم لهما. ماذا يفترض بي أن أعرف؟
ـ لا شيء..
وتقدمت منه وقبضت على ياقة قميصه. وصرخت به:
ـ قلت لك، قل لي!
ورفع ماتياس يده وكأنه يريد أن يضربها. فتقدم منه جون وقال محذراً: «إياك أن تلمسها!».
ودفعته ميلا بقوة، وكان يقف عند حافة المركب، فوقع في الماء، وفي الارتباك الفوري الذي حصل وجدت فرصتها. وكلمح البصر كانت تسرع راكضة من المركب عبر الحمالة إلى الشاطىء. كان كل ما تحتاجه معها، ووصلت إلى الشاطىء ولكن جون كان سريعاً، وقبض على يدها وأوقفها، وصرخ بها وهو يديرها لتواجهه.
ـ ألا تتعلمين أبداً؟
ـ اتركني! سأصرخ إذا لم تتركني.
ـ أنت بحاجة إلى ضرب جيد على قفاك. لماذا لا تتركي كل شيء لي؟

ـ مثل ماذا؟ تنظيم أمر حياتي؟ لقد اكتفيت من هذا الأمر. اذهب وتعامل مع هذين الرجلين قبل أن يخرّبا مركبك.
والتفت لينظر فحاولت ثني أصابعه لتتخلص، ولكن دون جدوى. واستدار إليها بسرعة ولمعت عيناه بالغضب.
ـ يا إلهي.. أنت مقاتلة صغيرة. أراهن أنني كنت سألتقطك من بين صف طويل، وأعرفك،بانك حفيدة...
ـ لا تقل هذا! قلت لك من قبل، لا أريد...
ـ إذاً لقد حان الوقت لتتوقفي عن الإنكار. وأن تكبري قليلاً.
وتجهم وجهه جدياً. وعلى مسافة منهما استطاعت أن ترى ماتياس يخرج من الماء بمساعدة رالف، وتابع قائلاً:
ـ ولماذا هربت مني عند الغداء؟ لقد كان عملاً خبيثاً.
ـ لقد حذرتك بأنني لن أبقى معك.
ـ وهل تعتقدين أنني بسيط لدرجة أن أصدقك؟ لقد لحقت بك وراقبتك وأنت تشقين طريقك بين الجموع في السوق... وشاهدت كل حركاتك. هل اعتقدت أن بمقدورك الخلاص مني بسهولة؟
ـ ولكنني لم أرك.
ـ لقد فعلت ما بوسعي كي لا تريني. يا حلوتي. لقد امضيت سنتين في حرب فيتنام، وتعلمت كيف أختفي عن الأنظار.
ـ إذاً.. كنت تعلم بأنني أتيت إلى المركب؟
كانت الحرارة شديدة فوق الجزيرة والرطوبة شديدة، وتشوقت ميلا للجلوس بيأس، وأن تتمكن من أن تتوقف عن الهرب لفترة ما. ومررت لسانها على شفتيها الجافتين، واهتز صوتها.
ـ وعرفت.. أنهما لحقا بي؟
ـ أجل.. كنت أعلم أنك آمنة منهما. ولكنك لم تكوني تعرفين هذا. هل كنت خائفة؟

ـ وماذا تظن؟ كنت سأدبّر نفسي!

ـ أوه بالتأكيد... الاثنين معاً؟ أنت طفلة شجاعة، ولكن هناك حدود لما تستطيعين فعله..

وسمعت صوته يتلاشى، ونظرت إليه بحدة لتعرف ما إذا كان يخفض صوته أم لا، وترنح وجهه ثم بدا أنه يتحرك مبتعداً عنها بسرعة، وسمعت صوته من مسافة بعيدة «ميلا؟ ما بك...».

ثم اختفى العالم من أمام نظرها، لتسبح بين النجوم وتدفق المياه.. وأغمي عليها، للمرة الأولى في حياتها.

☆ ☆ ☆

٤ ـ هو أو أسماك القرش!

الاستلقاء هكذا، كان لطيفاً ومريحاً. ليس عليها أن تقاتل بعد الآن، لأن كل شيء سيكون على ما يرام. لقد قالت لها أمها هذا، وهي تمسح جبينها، ووجهها بالماء البارد. وتقول:

ـ لا تقلقي يا حبيبتي...

وفتحت عينيها، وغادرها الطيف وتلاشى، ورأت جون، منحنياً فوقها، ومنشفة في يده، وفي الأخرى قماش رطب، وحدقت به بذهن فارغ كأنه غريب، وبقايا الحلم لا يزال عالقاً في رأسها بقوة بحيث لم تستطع أن تتعرف عليه. ثم تذكرت فجأة وصرخت:

ـ لا.. لا. اوه.

وأدارت وجهها عنه وجرت الدموع على وجهها المبلل. فقال لها:

ـ أنت بأمان.. لقد ذهبا.. او بالاحرى لقد تركناهما.

وحاولت جاهدة الجلوس، كانت مستلقية على المقعد الخشبي في الغرفة، والمركب يسير بلطف. ونظرت من الكوة ثم إلى الجانب الآخر، ولم ترَ سوى البحر من كل الجهات. البحر والسماء، ولا أرض.

ـ أين نحن.

ـ على بعد أميال من هاميلتون لايف. لم أستطع تدبير أمري

www.rumancia.com

معكم الثلاثة، ليس دفعة واحدة. لذا أبحرت.

ـ وأين هما؟

ـ يكافحان في طريقهما إلى الشاطىء عندما شاهدتهما آخر مرة، ومن يهمه أمرهما؟

ولم تجب. وأنزلت قدميها وجلست تنظر إليه:

ـ هل أغمي علي؟

ـ أجل.. كان عليّ أن أحملك إلى هنا، ثم أتخلص منهما، على الأقل أبقاك الإغماء هادئة عدة دقائق!

ـ لن أبقى معك هنا. الأفضل أن نعود الآن.

وضحك جون:

ـ لا بد أنك تمزحين! لا.. يبدو أنك لا تمزحين. أنت تعنين ما تقولين أليس كذلك؟ اتعودين لتخوضي المعركة من جديد، لا يا حلوتي لن أدعك.

ـ وأين ستأخذني الآن؟

ـ نحن في طريقنا إلى الباهاما، ومن هناك سنطير إلى أميركا.

ـ أليس عندك ضمير؟

ـ ضمير..؟ لقد طلبت مني أن أخرجك من تلك الجزيرة اللعينة، اتذكرين؟

ـ كان هذا قبل أن أعرف من أنت.. أو من أرسلك.

وجلس جون بقربها وقال لها بهدوء:

ـ اسمعي يا حلوتي.. كل ما أريده منك أن تقابلي جد.. أعني «آر. اس» هذا كل شيء.. قابليه، وإذا لم تريدي أن تبقي بعدها، لن يستطيع إجبارك.

ـ لا تكن سخيفاً! وأنت تدّعي أنك تعرفه هل هو من النوع الذي

يترك أي شخص يهرب منه، وخاصة بعدما صرف كل هذا المال ليجدني؟ لا تجعلني أضحك!

ـ وهل تتصورين أنني سأتركك معه هكذا، هل تتصورين؟ حقاً؟

ـ وما المفروض أن أصدق؟

ـ لقد فكرت بهذا كثيراً قبل أن آتي لإحضارك، من المؤكد أنني أريد مساعدته، وفي نفس الوقت عرفت أنك لست سعيدة بالعيش مع أهلك بالتبني. وقد أوضح هذا لي زائر كان عندكم وتعرف عليك. ولكنني أردت أن أقتنع بنفسي..

ـ ولهذا مثلت عليّ تلك التمثيلية وادّعيت أنك فقدت الذاكرة.

ـ لست فخوراً بما فعلت، إذا كان هذا يرضيك. قلت لك، لم أحب أن أخدع شخص صادق مثلك.

ـ لا أصدقك.

وأغلقت عينيها، وابتعدت قليلاً عنه، مشمئزة منه، كارهة أن تكون بقربه، وهي تعلم، بمرارة لا مفر منها، أنها لن تستطيع عمل شيء. وعادت إليها ذكرى الحلم، كانت أمها تتحدث إليها، وتقول لها إن كل شيء سيكون على ما يرام، وبيأس وصمت وتعاسة، بدأت تبكي، تشهق بالدموع، واضعة يدها على فمها بجهد لا جدوى منه للسيطرة على نفسها.

وسمعته يتأوه، وشعرت بحركة بسيطة، وفي اللحظة التالية كانت ذراعاه من حولها. وقال بهدوء:

ـ لا تبكي.. أرجوك لا تبكي. أنت تعرفين ماذا يفعل هذا بي.

ـ أنا.. لا.. لا أهتم.

كانت يداه دافئتان على ذراعيها، وقويتان ولطيفتان في نفس الوقت، وشعرت فجأة أنها لا تريد أن تقاومه أو تقاتله، مع أنه شعرت

بكراهيتها له. وأدارت وجهها المليء بالدموع إليه، ونظرت الى عينيه الزرقاوتان اللتان فقدتا قساوتهما. وضاعت بين ذراعيه وهو يضمها، بدفء وحنان ملأ قلبها وجسدها بالحرارة، إلى أن أبعدها عنه، ثم تحرك عنها مبتعداً. وقال بصوت خشن:

ـ أنا آسف يا ميلا.. لم يكن يجب أن أفعل هذا.

ـ أجل.. لم يكن يجب فعل هذا.

ولحقت به ووقفت في مواجهته، وملأت كيانها مشاعر لم تستطع فهمها وتملكتها روح التهور، للحظة واحدة، ثم، قد تستطيع أن تحصل على كل ما تريد، تستطيع الحصول على حريتها. ومدت يدها إلى ذقنه وضحكت، وقالت بطيش «عانقني ثانية».

وتطلع إليها، ثم وبحركة فجائية أبعد يدها عن وجهه، وتغيرت عيناه إلى القساوة والبرود، وأخافها هذا، وقال «لا» صوته قد تغير أيضاً. لقد أصبح جافاً «أنت لا تعرفين ماذا تفعلين».

وشعرت وكأنه ضربها، وواجها بعضهما بصمت، والمركب يتهادى بلطف، فرصتها التى اعتقدت أنها قد حانت، مهما تكن، قد ذهبت الآن.

وعاد الرجل الذي تكرهه إلى طبيعته. فقالت «أنا أكرهك» وركضت صاعدة السلم إلى السطح، ثم إلى الحافة، وقفزت إلى المياه الدافئة. لم يكن لديها أية فكرة واضحة عما تفعله، فقط أنها رغبت في الهرب منه.. من إذلالها.

وسمعت صوته يناديها «ميلا» وضربت المياه بيديها بقوة وقد ملأت المياه شعرها، وأعمت عينيها، ولكن المياه كانت قد غسلت دموعها وأثر عناقه. لم تكن تهتم لو غرقت. لم يعد أي شيء يهمها الآن.

لقد كانت سباحة قوية، ولا تخاف، واستدارت لترى ما إذا كان يراقبها عن سطح المركب. ولكنه كان قد اختفى... ثم ظهر رأسه

على بعد منها، ورأت ذراعاه تقطعان الماء بضربات سريعة جعلته في كل لحظة أقرب منها، وأحست بالذعر لطيشها.

وعادت إلى السباحة، ولكنها علمت أن لا فائدة. فقد وصل جون إليها بعد بضع دقائق، وأمسك بذراعها.

ـ أيتها الحمقاء الصغيرة. ألا تعلمين أن هناك أسماك قرش في هذه المياه؟ تعالى معي الآن إلى المركب.

ودفعته في صدره، وقاومت لتفلت نفسها.

ـ لا يهمني.. اتركني!

ـ لن أفعل بحق الجحيم!

ـ لن أعود معك.

ـ لست أمازحك يا ميلا، إذا لم تتوقفي عن المقاومة، سأصرعك ليس هناك وقت للألاعيب هنا، لقد رأيت قرشاً قبل أن نتوقف بقليل.

وأرعبها هذا قليلاً، فالتفتت لتنظر من حولها، لم يكن هناك شيء على سطح الماء، لا مثلث مميت يتجه نحوهما فقالت:

ـ أنت تكذب من جديد. وأنا لا أهتم.

وضربته بكل قوتها ودفعت نفسها عنه، وشاهدت يده ترتفع، وكان هذا كل ما رأته قبل أن تظلم الدنيا أمام عينيها.

شعرت بالشمس تجفف بشرتها وهي مستلقية على سطح المركب. وفتحت عينيها ونظرت من حولها. لم يكن هناك أثر لجون. وتساءلت برعب ما إذا كان لا يزال في الماء، ولكن كيف وصلت إلى سطح المركب إذا كان في الماء؟ وتنهدت وأغمضت عينيها. ذقنها كان يؤلمها ولمسته بأصابعها، ثم تذكرت، لم يكن يمازحها: لقد ضربها.

ـ إنها مجرد لمسة عابرة، ستعيشين.. أتستطيعين الوقوف؟

ـ لا.. اذهب عني.. لقد ضربتني.

ـ لم تعطني أي خيار آخر، إذا لم تصدقيني بخصوص سمك القرش، فالقي نظرة الآن، فهناك متوحشون بشعون يحومون حول المركب. أتعلمين أن أسماك القرش تشعر بالاهتزازات على بعد أميال؟

وجلست ميلا، ثم وقفت عند السياج. البحر هادىء وصافي، ثم فجأة، لم يعد هكذا. وتقدم إلى مقدمة المركب، شكل مألوف لديها بسرعة فائقة، قرش أبيض ضخم، يسبح بخفة تحت سطح الماء، بصمت قاتل.

وحدقت به بذهول.. لم يكن هناك ما يقال. ثم استدارت وعادت الى الغرفة. وأقفلت الباب وفتحت كيس الثياب، لقد كانت مسرورة عندما جربتهم. ولكنهم الآن لا يعنون لها شيئاً، مجرد ثياب، شيء جاف ترتديه بعد غطسها في الماء. وعادت إلى السطح ونشرت ثيابها المبللة، وكان جون يجلس وهو يتفحص خيط جيد باهتمام. فسألته:

ـ هل ستصطاد القرش؟

ـ لا.. بل سأحاول التقاط سمكة للغداء. فالقرش لا يدور حول الناس فقط بل حيث هناك مجموعات من السمك أيضاً.

وتركته، واتجهت نحو حافة المركب ونظرت إلى المياه، لقد اختفت أسماك القرش الآن. هل سيصدق أنها قد اقتنعت بالواقع؟ ألن يحاول على الدوام مراقبتها من الآن وصاعداً؟ وقالت له:

ـ لا أستطيع رؤية أسماك القرش الآن من الأفضل أن تسرع قبل أن يذهب السمك؟

ـ هل تحبين أن تتفرجي من هنا؟

وتقدمت نحوه لتقف قربه، وأحست بنوع من التوتر العاطفي يسري بينهما. كان شيئاً جديداً وغريباً على ميلا. ولكنها شعرت بالدفء في داخلها، وشعور بقربه منها، مما سبب لقلبها الخفقان. وعندما ابتعد

قليلاً عنها، تأكدت أنها لم تكن تتخيل، فقد كان قلقاً من وجودها قربه أيضاً. وتنفست عميقاً، شيء ما قد تبدل بينهما في الساعة الأخيرة، ولن يعود كما كان أبداً. ولكن ما هو بالضبط؟ إنها لا تعلم.

وقال لها فجأة:

ـ هل تمسكين الصنارة قليلاً بينما أحضر قليلاً من الطعم؟

ومدت يدها لتأخذها منه، وتلاقت أصابعهما خلال ثانية، وأحست بصدمة غامرة، شرارة حارة انطلقت إلى ذراعها. فنظرت إليه ولكنه كان قد ذهب، ووقفت حيث هي مسمرة تمسك صنارة الصيد وكأن حياتها تعتمد عليها. كانت خائفة لأنها لا تعرف ماذا يحدث لها.

عندما عاد وأخذ الصنارة منها لاحظت جيداً أنه حذر أن تلمس يده يدها، وجلست وكذلك فعل جون وقال:

ـ سنحس بالسمك يأكل الطعم بعد قليل.

وسألته بعد صمت:

ـ لماذا.. كان يريدان عودتي معهما؟ ولماذا ذكرت المال؟

ـ ألم تحزري؟

ـ لا.. ولهذا أنا أسأل.

ـ أخبريني ميلا. هل طلب أحد منهم أن توقعي على شيء ما؟

ـ أوقع؟ أوقع ماذا؟

ـ أي شيء.. أوراق.. نماذج.. رسائل ربما.

ـ لا.. بالطبع لا.. ولكن انتظر...

وعاودتها ذكرى غامضة.. غامضة وغير مهمة حتى أنها بدت لا تستحق الذكر.

ـ كان هناك شيء. منذ سنين طويلة. ورقة كان علينا توقيعها جميعاً، تأمين على الفندق أو ما شابه.

ـ هه.. فهمت..
ـ ولكنني لم أفهم.
ـ حسناً. أظن أنهم كانوا يستخدمون اسمك. يزّورون توقيعك للحصول على مال من مكان ما. اخبريني كيف يصل البريد إلى الجزيرة؟
ـ يأتي به مركب كل أسبوع من هاملتون ريف.
ـ وهل شاهدت مرة البريد عندما وصل؟ إيصاله إلى الضيوف أو للإجابة على بعض الطلبات.. أي شيء؟
ـ لا.. فلينا تصر دائماً على أن هذا من عملها. ولم تسمح لي أبداً بفتح كيس البريد.
ـ والآن.. ألم تفهمي بعد؟
ـ أتعني أن هناك رسائل كانت تصل لي من مكان ما؟
ـ هذا ممكن.. في الواقع بعدما قلتي هناك إمكانية كبرى.
ـ وقد يكون المال بداخلها.. مال لي؟
ـ أجل.
ـ ولكن من أين؟
ـ من أقاربك الأنكليز؟ من يعلم؟
ـ ولكن هذه جريمة؟
ـ مما شاهدته من أقاربك حتى الآن، لن يدهشني شيء. وحمداً لله لم ألتق بأمك بالتبني. ولكنني أراهن بأنها ليست أفضل من هذين المسخين اللذين تركتهما يتخبطان في الماء.
ـ ماذا قلت لهما؟
ـ قلت لهما إنني لست غافلاً عن لعبتهما، وإن هذا ليس آخر شيء سيسمعانه مني.
«أوه» وجلست جامدة، تشعر بتعاسة لا تصدق. هل كل الدنيا

ضدها؟ الا تستطيع فعل شيء.
ـ ميلا.. أهذا كل ما عندك لقوله «أوه»؟
ـ اتركني وشأني!
وقفزت واقفة على قدميها، وأصابت الصنارة فوقعت في البحر، ونظرت إليه.
ـ اتركني وشأني فقط.. أنا أكرههم.. وأكرهك! هل تسمع؟
وركضت إلى الغرفة وصفقت الباب وراءها. ورمت نفسها على المقعد الخشبي، ووجهها إلى الأسفل، وجسدها كله متوتر، وتعب، وذلك الشعور الذي ظنت أنها لن تفهمه أبداً. وأغمضت عينيها، وحاولت الاسترخاء، فنجحت، وغرقت بالنوم.
واستيقظت على رائحة الطعام، فجلست ودخل جون فرآها وقال:
ـ لقد التقطت سمكتين.. هل أنت جائعة؟
ـ أجل.. هل أستطيع مساعدتك.
ـ لا.. فقط اجلسي وانتظري.. أوكي؟
ودخلت ميلا إلى غرفة الحمام الصغيرة فغسلت وجهها ويديها، ونظرت إلى نفسها في المرآة. متسائلة عما إذا كان ما حدث لها خلال اليومين الماضيين سيظهر على وجهها، ثم عاودتها الذكرى الحارة، فكرت بما حصل معهما، فاستدارت عن المرآة، وقد تسارعت دقات قلبها. وشعرت بالتوتر الملموس وكأن تيار كهربائي حصل عندما مست أطراف أصابعه أطراف أصابعها، وهذا لم يتكرر.. لماذا يا ترى كان متوتراً بخصوص هذا الأمر؟ وسمعته يقول:
ـ سأعطيك دواء تضعينه على ذقنك بعد أن تأكل، ذكريني!
ـ سأكون بخير.. كانت غلطتي على كل الأحوال.
ـ أعلم هذا ولكن ليس مطلوباً منك أن تعاني الألم وأنت صامتة.

ووضع الطعام أمامها.

ـ هيا كلي.. إنه لذيذ وساخن، وهناك بعض الفاكهة فيما بعد.

وأكلا بصمت. ميلا كانت تعبة، وبدا جون مشغولاً. ودفعت بصحنها إلى حافة الطاولة وسحبت نفسها عن المقعد، والتقطت الصحن وقالت «ساعدّ القهوة» فهز رأسه «عظيم». كان وكأنه لا يصغي إليها، وتساءلت عما يفكر به. وبينما هي تملأ إبريق القهوة وتضعه فوق النار أخذت تفكر به، من هو هذا الرجل الذي أتى من بعد عدة آلاف من الاميال ليبعدها عن الحياة الوحيدة التي تعرفها؟ كل ما تعرفه عنه هو اسمه، وأن والده كان صديقاً لروبرت ستارتنغ هذه هي الوقائع. وبعض الأشياء عرفتها بنفسها، إنه قوي، وقليل الغضب. قاسي ولطيف. وممكن أن يكون مرحاً كما يمكن أن يكون متجهماً. مرتين حاولت الهرب منه، مرة على الباب ومرة في البحر، ووجدها في المرتين. وفي المرة الثانية يمكن أن يكون أنقذ حياتها.

وتنهدت، ثم أنهت صنع القهوة وصبتها في الأكواب وزادت الحليب المجفف.

ـ شكراً لك.. ألن تتناولي الفاكهة؟

ـ لا شكراً.

لم ترغب في الجلوس ثانية، أرادت أن تكون بعيدة عنه، ولكن أين؟ ليس هناك مجال للخلاص. وكأنه عرف ما تفكر به، فنظر إلى ساعته.

ـ سنرسو عما قريب. أريد أن نبلغ اليابسة قبل أن يحل الظلام.

ـ أية يابسة؟

ـ جزيرة قريبة من هنا.

ـ وهل سنرسو هناك لقضاء الليل؟

ـ أجل.

ـ ثم ماذا؟

ـ لقد سبق وقلت لك.. هناك عدة مراحل للوصول إلى أميركا.

ـ وهذا كل شيء.. أليس كذلك؟ لقد خططت لكل شيء؟ وكأنني معك حمولة.. بضاعة؟

ـ حسناً الآن، اهدأي. أنا تعب، لقد كان يومي شاقاً إذا تذكرتي.

ـ لست أهتم كيف كان يومك. ولا تستطيع لومي على عمل تعهدت أنت بالقيام به.

ـ ولكن لست مضطرة لزيادة مصاعبي.

ـ ولماذا لا؟ لم أكن أعرف من أنت عندما وجدتك على الشاطىء. وأنت تقوم بتمثيلية تستحق عليها جائزة أوسكار، وإلا لتركتك هناك!

ـ اتعلمين شيئاً.. أعتقد أنك كنت ستفعلين هذا.

ـ أنت محق بهذا.

وبدأ يضحك، فغضبت وتناولت كتاباً قريباً منها وضربته به.

ـ لا تتجرأ أبداً على الضحك مني!

وتفادى الكتاب بذراعه فوقع على الأرض. ثم وقف في وجهها، رائع، ضخم، ومقاتل. واستدارت عنه، فأمسك بذراعها وقال:

ـ التقطي الكتاب عن الأرض.

ـ اذهب إلى الجحيم!

ـ أنا لا أمزح يا ميلا.. التقطيه أو سأجعلك تلتقطينه بالقوة.

وحاولت سحب ذراعها منه. ولكن قبضته اشتدت عليها. ولم يكن هذا مؤلماً. ولكنها كانت ستتألم لو أنها حاولت المقاومة. فقالت له متحدية: «إذاً أجبرني بالقوة».

وسمعته يخرج نفساً عميقاً مع تنهيدة. وبدا الجو بينهما مهدداً بالانفجار. أية شرارة ستفجره. وقال بهدوء:

ـ أنا أعني ما أقول.

وعلمت أنه سيفعل ما يريد. وأن خيط غضبه الرفيع مشدود كالوتر. فقالت بسرعة:

ـ اتركني.. سألتقطه.

وقطعت الغرفة، والتقطت الكتاب ووضعته على الطاولة. وقالت وهي على وشك البكاء «هل أنت راضٍ الآن» كانت ترتجف وحاولت إخفاء ذلك فمالت فوق الطاولة.

ـ عندما تتصرفين بطريقة متحضرة، سأكون راضياً. ولكنك تجدين هذا صعباً عليك...

ـ لست بحاجة إلى محاضرة منك.. شكراً لك.

ـ ولن أعطيك محاضرة. فقط تذكري أن هناك قواعد معينة للسلوك قد تساعدنا بشكل أفضل. ورمي الأشياء لا يحل مشكلة.

ـ ولماذا لا تدير المحركات وتمضي في طريقك.. سيحل الظلام عما قريب.. لا تدعني أؤخرك.

ـ لن أتأخر... أنا ذاهب فوراً.

ووقفت ميلا وحملت الأكواب إلى المطبخ ووضعتها في المغسلة، لولا صوت المحركات لما شعرت بأن المركب يتحرك. ثم بدأت تغسل الصحون والأكواب وعندما جف كل شيء وضعتها في الخزانة ثم نظفت الطاولة. والآن ماذا؟ ماذا ستفعل؟ ما هي الفرصة التي أمامها لتتخلص منه؟ ولكن قد يكون من الأفضل الذهاب معه إلى اميركا، ولقاء الرجل الذي ترفض التفكير به على أنه جدها..

إلا إذا.. إذا حصلت معجزة...

☆ ☆ ☆

٥ ـ في قبضة القدر

ـ استيقظي ميلا!

وفتحت عينيها لتجد جون يقف في الغرفة. كان يبدو نظيفاً، نشيطاً، حليقاً، ويرتدي قميصاً أزرق فاتح وبنطلون جينز. ويحمل كوباً من القهوة: «إنه الصباح».

ـ لقد سمعت أصواتا الليلة الماضية. أين نحن الآن؟

ـ متوقفون.. في مكان ما.

ـ ولكن أين؟ وأين نمت أنت؟

ـ أنت تسألين الكثير من الأسئلة، لقد نمت على السطح.

ـ اوه.. ومن هو الذي كنت تتحدث إليه؟

ـ لا أعرفه، لقد اشتريت منه الوقود فقط، ولم أسأله عن اسمه.

إذاً الجزيرة مأهولة، وهما راسيان على مقربة منها! وتناولت كوب القهوة وقالت «شكراً... هل أحضر الإفطار؟».

ـ إذا احببت، في أي وقت، لست مستعجلاً. وخرج بهدوء وتركها لوحدها...

لست مستعجلاً، هكذا قال. وشربت ميلا قهوتها، وعبست. ما هو التغيير الذي حدث له هذا الصباح؟ هناك شيء بالتأكيد ولكن ما هو؟ وتثاءبت، ومطت جسدها، ثم وقفت. وأنهت قهوتها ثم توجهت الي

الحمام الصغير لتأخذ دوشاً.

كانت تنوي أن تبقى هادئة وباردة، ولن تظهر شوقاً لرؤية الجزيرة. وستعطي انطباعاً بأنها تكيفت مع الوضع ولم يعد لديها تفكير بالهرب، لم تكن تتصور أن هذا قد يخدع جون، ولكنه على كل حال تمرين جيد لها.

ووجدت تسلية في تحضير الإفطار، ونادته عندما انتهت. وعندما نزل، وجد طبقه من اللحم والبيض جاهزاً فتنشق الرائحة وقال «هم م.. أنت فعلاً تعرفين كيف تطبخين».

ـ ولكنك لم تذقه بعد.

ـ لست بحاجة لتذوقه. فأنا أعرف.

ـ سأحضر لك قهوتك..

وتركته يأكل، فقد أكلت هي قبله ثم حضرت له إفطاره لوحده، ولم تكن واثقة مما دفعها لذلك، ما عدا أن هذا يعني أنه سيكون لوحده يأكل بينما هي على السطح تنظر من حولها بهدوء.

ووضعت القهوة أمامه «أي شيء آخر؟» فهز رأسه بالنفي فتابعت:

ـ سأصعد إلى سطح المركب لأتنشق بعض الهواء. اوكي؟

ـ جيد... تصرفي بحرية.

ـ سيكون هذا صعباً.

وأغلقت الباب وراءها، وصعدت السلم ببطء. وظهرت لها الجزيرة ممتدة أمامها، كانت كبيرة ومغطاة بالأشجار، وليس فيها أثر للحياة، ولكنها تذكرت أن جون يفضل أن يرسو في مكان مهجور من الجزر، فابتسمت لنفسها. ونظرت حولها بفضول، ثم صعدت لتلقي نظرة على غرفة القيادة.

وهناك وجدت محفظته. وخفق قلبها. ربما غيّر ملابسه هنا ونسي أن يعيد المحفظة إلى جيبه. وامتدت أصابعها، ولكن الأمانة الطبيعية

فيها حاربت الرغبة في لمس أي شيء يخص الآخرين. وبعد معركة قصيرة مع نفسها، لم يعد أمامها خيار آخر، ليس إذا كانت فعلاً تنوي الهرب. وستعيد المبلغ له. ستجد طريقة ما، حتى ولو كانت سترسل المبلغ الى جدها.

وفتحت المحفظة، كانت مليئة بالدولارات، وبطاقات الاعتماد، والشيكات السياحية. لم تكن قد شاهدت مثل هذا المبلغ في حياتها. وتنفست عميقاً، وأخذت ورقة عشر دولارات وأعادت المحفظة، وهي تشعر بالذنب بشكل لا يصدق، وبالخجل. ووقع شيء منها وهي تعيدها. فانحنت لترجع ما وقع إلى مكانه، فوجدت صورة لفتاة تظهر الرأس والكتفين. فتاة جميلة رائعة، في العشرينات من عمرها، شعرها أسود وعيناها ضاحكتان، ووضعت الصورة في المحفظة، ووضعت قطعة المال في جيبها، واستدارت بسرعة قبل أن تغير رأيها.

كان المركب يرسو على بعد عشرات الياردات من الشاطىء الرملي، الذي كان يمتد على الجانبين. الآن... يمكنها أن تهرب الآن، إذا كانت حقاً ترغب. كل ما عليها أن تفعل، هو أن تقفز في الماء، وتسبح إلى الشاطىء، ثم تركض. وترددت قليلاً. الفرصة أمامها، الحرية، على بضع خطوات فقط، وجون قال لها «تصرفي بحرية» ولكنه لم يكن يعني هذا تماماً. وإذا نجحت هذه المرة، سيتوجب عليه العودة إلى آر. إس، ليظهر فشله. وشدت يديها بشدة على الحاجز، وأتى صوته من خلفها:

ـ إنه مكان جميل بالتأكيد، أليس كذلك؟ وهادىء جداً.

لقد ضاعت الفرصة، في الوقت الحاضر. واستدارت:

ـ أجل.. المياه تبدو منعشة ومغرية أيضاً. لقد كنت أفكر بان اسبح.

ـ هيا، المكان قليل العمق هنا بالنسبة لأسماك القرش. هل تريدين

تغيير ثيابك؟

ونظرت إلى المياه مترددة، العشرة دولارات في جيبها تحرقها كالجمر.

ـ لا.. لا أظن أنني سأغير ملابسي... ستجف هذه بسرعة. هل ستسبح معي؟

ـ لا.. ربما فيما بعد. سأقوم بعمل اولاً ثم سأسبح، إذا شعرت برغبة. لقد سبحت هذا الصباح. إضافة إلى أن معدتي مليئة بذلك الطعام الرائع.

ـ لقد أكلت أنا قليلاً.. لم أكن جائعة.. سأراك قريباً..

ـ أجل.. انتبهي أين تذهبين.

ـ سأنتبه، وسألازم جانب المركب.

سيكون الأمر سهلاً.. حتى أنه لن يقف ليراقبها وهي تسبح وشاهدته وهي تقفز إلى الماء، وقد استدار نحو الغرفة.

وسبحت قليلاً قرب المركب، في حال كان يراقبها. ولكنها لم تلمحه أبداً ونظرت إلى الشاطىء. وكان أسهل شيء في الدنيا أن تسبح نحوه، ثم سارت قليلاً على الرمال وكأنها تفتش عن الأصداف. وابتعدت أكثر فأكثر، إلى أن أصبح المركب نقطة بيضاء صغيرة عن بعد، ولم تظهر أية حركة على سطحه.

وبتنهيدة رضى قصيرة، تقدمت نحو الأشجار وبدأت تركض. ركضت وركضت، ووقفت قليلاً لترتاح من الم مفاجىء في جانبها. ثم سارت على مهل لفترة حافية القدمين، وهي تتطلع من حولها خوفاً من الحشرات أو الأفاعي والعناكب. كان المكان معتماً ورطباً بين الأشجار، وشعاع الشمس يمر بين الأوراق الضخمة بأشكال رائعة. ولن تكون الآن بعيدة عن القرية، هكذا فكرت. وأكملت طريقها،

متوقفة أحياناً لتصغي لأي صوت قد يدلها على القرية، ولكن لم يكن هناك صوت ما عدا صوت الطيور على الاشجار محذرة بعضها من الغريب الذي يسير بينها.

وأصبحت تعبة الآن. كم تبعد القرية بعد؟ يجب أن تصل إلى مكان ما قريباً. لا يمكن أن تستمر سائرة إلى ما لا نهاية... ثم رأت الشاطىء، الرمل، الماء، وركضت خارجة من بين الاشجار، وقد عرفت أنها كانت تمشي في طريق مستدير أعادها حيث كانت، ما عدا أن المركب لم يكن ظاهراً، إذاً فهي الآن في الطرف الأخر للجزيرة، فهنا بعض الصخور وخط من الطحلب البحري الجاف لم يكن من قبل.

لم يكن أمامها سوى شيء واحد، أن تبقى سائرة على طول الشاطىء إلى أن تصل إلى القرية، حيث اشترى الوقود منها. واصبح الطقس الآن حاراً أكثر، لان الشمس قد ارتفعت في السماء، وبدأ العرق يتدحرج على ظهرها وذراعيها وتوجهت نحو الماء وبدأت تسير فيه، على الأقل هذا يبرد قدميها.

لا بد أن تصل قريباً. ولكن هذا لم يحدث. فلم تجد شيئاً أمامها. وأصبحت تشعر بالحرارة والتعب، وعلمت الآن لماذا لم يهتم جون بالسباحة معها. وعلمت أيضاً سبب تغيره ذلك الصباح... فقد كان ينتظر منها أن تفعل شيئاً، منتظراً أن تظهر غباءها.

وصاحت لنفسها «آمل أن تكون راضياً الآن.. أوه كم أكرهك!» وعادت الى السير على طول الشاطىء وهي تعلم بأنها سوف تصل إلى المركب عاجلاً أم آجلاً.. وعند كل خطوة كان غضبها يتصاعد.

لم يكن ينتظرها في المركب، بل كان جالساً في ظل أشجار النخيل على الشاطىء، يتمتع بأكل جوزة هند يقطعها بسكينه، وكأنما لا يهمه شيء في العالم. ونظر إليها وهي تسير نحوه تدفعها الطاقة

المتولدة من غضبها. وضحك بكسل وهو ينظر إليها وقال:

ـ هاي!.. هل تمتعت بنزهتك؟

ورمت نفسها عليه صارخة «أيها الوحش الذي لا يحتمل!» واستعدت لتصب غضبها عليه، ولكنها وجدت نفسها مستلقية على ظهرها وهو ممسك بها بشدة.

ـ هاي.. توقفي، أيتها القطة البرية! ماذا دهاك الآن؟

ولكنه كان يعرف جيداً ما بها. وقاومت لتحرر نفسها.

ـ اتركني! أنا أكرهك! لقد فعلت هذا عمداً...

ـ فعلت ماذا؟.

ووقف، ثم جذبها لتقف، بكل سهولة. وقال لها:

ـ ألن تتعلمي ابداً؟ توقفي عن محاولة لكمي!

وتوقفت، إذ لم يبقى لديها قوة على كل الأحوال، فتركها وقالت له «كنت تعلم أن لا أحد على هذه الجزيرة.. أليس كذلك».

ـ طبعاً كنت أعرف. ولو سألتيني، لقلت لك. لم أقل إنني توقفت هنا لشراء الوقود. ولا علاقة لي بما يدور في عقلك الصغير المضحك.

وهُزمت ميلا.. كالعادة. وسارت نحو المركب، وسبحت في الماء، وتسلقت إليه. كانت عطشة، وهناك علب مشروبات في البراد الصغير... وستتناول منها.. ولن تحضر له الغداء.

وجلست في الغرفة، ورفعت الكأس إلى فمها، إن الشراب بارد جداً، ولذيذ. ثم أحست بالمركب يهتز، وسمعت أصوات قدميه، ودخل الغرفة ووقف يرقبها.

ـ أظن أنني سأتناول واحدة من هذه... هل هي لذيذة. وباردة؟

فأغلقت عينيها وأدارت وجهها عنه فقال بمرح:

ـ كما تشائين.. الشارب يليق بك.. يجعلك تبدين كالرجل

بطريقة ما..

وضحك، وتركها وهو يصفّر ودخل المطبخ. ومسحت ميلا رغوة الشراب عن شفتها العليا. كلمة أخرى منه، واحدة فقط، وسوف... ماذا ستفعل؟ وأحنت رأسها. كان هناك رمال على ذراعيها علقت عندما حاولت أن تضربه ووقعت على الرمال. ماذا ستفعل الآن؟ واخذت تفكر. لا شيء سوى... ربما تستطيع سرقة المركب والإبحار به نحو المجهول. وتنهدت.. إنها لا تعرف حتى كيف تدير المحركات.

ووقف جون عند الباب ينظر إليها «هل انت خائفة؟».

ـ سأحضّر طعامي بنفسي.

ـ هذا جيد... افعلي ما شئت. سأترك الأمر لك.. وهذا سيكفيني.

وأخذ فخذ دجاجة وبدأ يأكله. وأنهت ميلا شرابها وخرجت من الغرفة. ونظرت نحو الشاطىء ثانية. لقد تجولت هناك قبل قليل، وفي طريقها كان هناك تلة، وشلال ماء ينحدر الى أسفلها ويصب في بركة، وفكرت كم سيكون رائعاً ان تغسل الملوحة والرمال عن شعرها قبل أن يتلبد. على الأقل ستشغل نفسها بعيداً عنه. وصعدت إلى الحاجز وقفزت، ثم سبحت إلى الشاطىء ودخلت بين الأشجار دون أن تلتفت.

بعد أن نظّفت نفسها وشعرها تماماً في المياه العذبة للنبع، نظرت حولها، لقد كانت وحيدة تماماً، والهدوء والسكون له طابع خاص وكأنه ملموس. ولن يلحق بها جون، لأنه يعلم أن لا مكان تذهب إليه. ربما يكون نائماً الآن على السطح او في الغرفة بعد أن تناول الدجاج. ولن تهتم به. هنا هي في مأمن. بعيداً عن لينا، ورالف، وماتياس... وعنه... لفترة قليلة على الأقل. وتخيلت ما ترغب به:

أن تكون هذه الجزيرة لها، وطنها، تعيش هنا بمفردها مع الطيور فقط ترافقها، وشعرت بالراحة لهذا التفكير.

ونظرت إلى سفح التل الى يمينها، وفكرت أن تتسلقه لتنظر حولها، ولتلعب لعبة تصديق نفسها. أن تبقى ساعة أو ساعتين.. حرة، وبدأت تتسلق تابعة مجرى المياه وهي تراقبها تتساقط نزولاً فوق الصخور والعشب، وأخرجت جميع الأفكار من ذهنها، ما عدا التصميم على الوصول إلى القمة.

كانت القمة مرتفعة أكثر مما تصورت، وانقطعت أنفاسها قبل ان تصل إلى فوق، وجلست هناك تنظر من حولها. كانت الأشجار تحيط بها، وعلى بعد البحر، ثم السماء، ولم يكن هناك شيء في الأفق. ما عدا طيف خفيف لجزيرة بعيدة. ونظرت إليها، هل هي هاملتون ريف.. أم مكان آخر، ربما إلى حيث سيتوجهان؟ لم يبدو الأمر مهما، فهنا لا شيء مهم. سوى حقيقة أنها هنا، تجلس قرب الصخور القديمة قدم الزمن، التي يتدفق منها الماء البارد منذ الأزل، وستبقى هكذا إلى الأبد، تخرج من أعماق العالم، من منتصف الأرض. وما المهم سوى ذلك؟ واستلقت ميلا على ظهرها واغمضت عينيها، وصوت الماء من حولها، يهدهدها. ويرخي اعصابها، ويرسلها إلى النوم، حتى أنها سمعت صوت أمها ثانية يقول لها إن كل شيء سيكون على ما يرام...

واستيقظت مجفلة... حرارة الشمس تلسع وجهها في آخر النهار. كم مضى عليها وهي نائمة؟ لم تكن هناك طريقة لتعرف. ولكنها أحست بجوع. جوع مفترس وهي لا تنوي الموت جوعاً، وهكذا فكّرت بالعودة، لترى ما إذا كان هناك جزء من الدجاجة لا يزال موجوداً.

وكانت هذه آخر فكرة راودتها... تقريباً. إذ بينما هي تستدير

لتهبط ثانية، علقت رجلها في كومة عشب قاسية، مبللة بالماء، وبدأت تهوي، تتدحرج، تلتف، تدور وتتلوى، وتصرخ وهي تنزل إلى تحت بقوة، تحت، تحت، والسرعة تزداد، باتجاه أسفل التل.. ثم غرقت في ظلام دامس. وآخر ما فكرت فيه أنه لن يجدها حيث هي...

كان الظلام شديداً عندما فتحت عينيها. ولكن ليس ظلاماً كاملاً، لأن نور مصباح يد كان على وجهها، وتأوهت ثم ادارت رأسها بألم..

ـ ميلا!...

وبدا صوته منقطع الأنفاس، وكأنه كان يركض. وكانت تتألم في كل أنحاء جسدها.

ـ أوه... ميلا... لا تتحركي يا إلهي.. هل وقعت كل هذه المسافة؟ وركع قربها، وأخذ يمرر المصباح فوق جسدها. فتمتمت قائلة:

ـ لقد... انزلقت... على... على العشب.

ـ حسناً... لا تحاولي الكلام. انظري يا حلوتي، سآخذك الى المركب، وعليّ أن أحملك، وسأفعل هذا بلطف بالقدر الذي أستطيعه.

كانت تعلم أنه لطيف، ولكنها لم تتصور كم يستطيع أن يكون هكذا عندما يكون مهتماً وحذراً. وحملها وكأنها زجاج عرضة للكسر، وسار ببطء وثبات، حتى أنها لم تشعر بالخوف مطلقاً.

وعندما وصلا الشاطىء. توقف، وقال بنعومة:

ـ يجب أن نذهب إلى المركب يا حلوتي.. وقد يكون الأمر صعباً، ولكن سأكون حذراً قدر استطاعتي.

فهمست له.. «أعلم هذا» وحملها ووضعها في الماء وأخذ يسبح وهو يسحبها حتى وصلا المركب، فقال:

ـ هل تستطيعين تحريك ذراعيك؟
ـ سأحاول. . .
وبذلت جهداً كبيراً، وحركت كل ذراع على حدة.
ـ إذاً ضعيهما حول رقبتي وتمسكي جيداً.
ـ هكذا؟
ـ عظيم. . أنت عظيمة. هذا يعطيني مجالاً لأصعد السلم. هيا بنا. . تمسكي جيداً.
لا بد أن له عضلات من فولاذ، فقد استخدم فقط ذراعه اليمنى وساقيه. وحملها إلى السطح، وفي الدقيقة التالية كانت مستلقية على المقعد الخشبي. وهمست:
ـ أشعر بالبرد. . البرد الشديد.
ـ أعرف. . وسأغطيك بعد قليل، ولكنني أولاً أريد أن أرى إذا كان فيك أي كسر. تحمّليني. . فسأكون حذراً.
وأحست ميلا بيديه تتفحصان جسدها بدقة، ولكنها لم تشعر بأي الم. ما عدا الالم الذي كانت تحس به في كل جسدها. وتأوهت مرة عندما لمس كتفها. فقال:
ـ أنا آسف. . لا اعتقد أن أي شيء مكسور. . ولكنني سآخذك إلى طبيب في أقرب وقت.
وجلب لها بطانية ووضعها فوقها «هكذا أفضل؟ أتريدين واحداً آخر؟».
ـ لا. . . ولكنني عطشانة.
ـ جرعة ماء فقط. . أوكي؟ إلى أن أعرضك على طبيب.
وأحضر لها القليل من الماء ورفع رأسها بيده وتركها تشرب، ثم قال:
ـ سأغيب بضع دقائق ثم أعود لأعتني بك.

وأغمضت عينيها بعدما ذهب، لأن النور كان يؤذيهما. وتساءلت ما إذا كانت ستموت. وفي تلك اللحظة أصبحت مهتمة. وحاولت عد الثواني لعودة جون، ولكن الأرقام كانت تهرب منها. وبعد قليل توقفت عن العدّ.
ثم فجأة أصبح بقربها، فقد دخل بهدوء تام حتى أنها لم تسمعه.
ـ الضوء يؤذي عينيّ.
ـ أعرف. . سأحجب النور عنك.
ـ شكراً. . .
ـ سيصل الطبيب بعد قليل.
ونظرت إليه دون أن تستوعب ما قاله فابتسم.
ـ لا بأس. . لا تشغلي رأسك بالموضوع. . . لقد اهتممت بكل شيء.
وأغمضت عينيها ثانية.
ـ سآخذ الوسادة من تحت رأسك هل تشعرين بالغثيان؟
ـ لا. . بل أنا جائعة.
ـ جائعة. . سأعطيك بعض الحساء. هذا افضل من الأكل القاسي.
ـ سيكون الحساء رائعاً.
ـ سأحضره لك.
بعد أن أنهت تناول الحساء شعرت بأنها أفضل حالاً، وبدأت العاصفة. وسمعت صوتاً عنيفاً عندما ضربت الصاعقة مكاناً ما في الجزيرة، وتبعها فوراً صوت رعد مدوي، وقفزت ميلا وصرخت، واصبح جون بقربها على الفور. فهمست مذعورة:
ـ ابقى. . ابقى معي.

ـ سأفعل، هل تخيفك العواصف؟

ـ لا.. ليس عادة.. ولكن الآن.. الآن...

وبدأت تبكي. فجلس على المقعد الخشبي بحذر محاولاً عدم لمسها واخذ يدها بين يديه بلطف وقال:

ـ لا تقلقي يا حلوتي.. أنا هنا إلى جانبك.

وبقي هناك، يخفف من خوفها والرعد يقصف غاضباً من حولهما. وكل ما شعرت به من خوف، تبدد، إلى أن غرقت في النوم.

وسمعت أصواتاً من جديد، هل ستستيقظ دائماً على اصوات في منتصف الليل؟ وأنصتت، متسائلة أين هو جون. لقد كان ممسكاً بيدها، يتحدث اليها برفق، ولا بد أنها نامت. وأين هو الآن؟ مع من يتكلم؟ كان هناك صوت امرأة، ولكنها لم تستطع فهم ما يقولانه، لأنهم كان يتحدثون بلغة غريبة. كل ما تستطيعه الآن هو الانتظار. طالما أن جون لم يذهب...

ـ ميلا؟... الطبيب هنا ومعه الممرضة.

وفتحت عينيها لتجد جون هناك، مع رجل طويل، أسمر وكأنه اسباني... اسباني... هكذا إذاً! لقد فهمت ما كانت تسمعه الآن. وخطت الفتاة في ثوبها الابيض نحوها وأمسكت بيدها. وقالت:

ـ مرحباً.. أنا جوليتا، هل ستسمحين للدكتور رامون أن يفحصك؟

ـ اجل...

فقال جون «سأترككم. سأذهب وأعرض الخرائط على مانويل. نادوني إذا احتجتم إليّ».

ووضع الدكتور رامون حقيبته على الطاولة وابتسم لميلا، وقال شيئاً بالإسبانية.

ـ الدكتور يعتذر لأنه لا يعرف الإنكليزية. وطلب أن أقول لك إنه سيكون لطيفاً قدر المستطاع في فحصك.

ـ أجل.. افهم هذا.

وخلال الدقائق التالية تفحصت أصابع الدكتور الخبيرة كل انش من جسد ميلا. ولم تعد خائفة الآن، واستمرت الترجمة، كان على ميلا أن تشير أين يؤلمها بالضبط، وما إذا كانت لمسات الدكتور تؤلمها.

وعندما انتهى الفحص قال الدكتور شيئاً لجوليتا، التي ابتسمت لميلا مطمئنة، وقالت:

ـ دكتور رامون يقول إنه يعتقد أنك لم تكسري أية عظمة فيك. لديك عدة كدمات وجروح، وسيعتني بها حالاً. وعندك ارتجاج خفيف قد يسبب لك صداعاً لعدة أيام. هل تفهمين ما أقوله لك؟

ـ أجل.. أرجوك اشكريه عني، وشكراً لك ايضاً.

ـ بونيو.. سنطير إذاً إلى مكان ما لإجراء صورة شعاعية لك، لنتأكد فقط ثم نأخذك إلى المزرعة.

وقبل أن تسألها ماذا تعني.. سمعت صوت جون:

ـ هل أستطيع أن أدخل؟

وهز الدكتور رأسه لجوليتا قائلاً «سي».

ودخلت.. وتبع ذلك حوار قصير بالاسبانية بينه وبين الدكتور. ثم نظر جون الى ميلا وقال «ستصبحين بخير بعد بضعة أيام».

ـ أجل أعلم.. ولكن أين سنذهب؟... لقد قالت جوليتا شيئاً عن مزرعة.

ـ لا تقلقي للأمر. إنه مكان أعرفه. سنطير إلى هناك بعد تطبيب جروحك وكدماتك، سيعطيك الدكتور ابرة تخدرك وتخفف ألمك.

ثم قال شيئاً بسرعة بالإسبانية للفتاة فهزت رأسها وقالت:

ـ اجل... لقد فهمت، سنيور.

وعندما غرزت الإبرة في ساعدها، قالت للممرضة:

ـ ماذا قال لك جون بالإسبانية الآن؟

ـ كان يقول إن عليك أن لا تقلقي حول أي شيء. وان عليّ أن أبقى قريبة منك طوال الوقت خلال رحلتنا.

وأحست كأن الغرفة تبتعد عن عينيها، وشعرت براحة كبيرة، وزالت كل آلامها، مع التدليك بالمرهم الذكي الرائحة، وقررت ميلا أن ليس هناك بالفعل شيء تقلق لأجله. وكل شيء سيكون على ما يرام تماماً...

وبدا لها كل شيء مشوشاً عندما أعادت فتح عينيها. كانت مربوطة على حمالة، يحملها جون ورجل آخر... غير الدكتور، على شاطىء رملي، والى جانبهم طائرة بحرية، وكانوا يتوجهون إلى طائرة أخرى متوقفة عند رصيف.

ولا بد أن ميلا صرخت، لأن جوليتا أصبحت قربها فوراً، تمشي إلى جانب الحمالة، تمد يدها لتمسك بيد ميلا. فهمست لها:

ـ ماذا يحدث؟

ـ هس.. كل شيء جيد. إننا نغيّر الطائرة فقط.

ـ ولكن... أستطيع الحراك... لماذا...؟

ـ هذا لمنعك من الوقوع.. أنت آمنة فعلاً..

كانت الشمس تلفحهم. إذاً الوقت صباحاً. ولكن أي يوم؟ لم يكن لديها فكرة. وشعرت بالعطش الشديد، وقالت هذا لجوليتا. وقال جون من مكانه عند مقدمة الحمالة دون أن يلتفت.

ـ سنكون على متن الطائرة بعد لحظات، وستعطيك جوليتا عندها شيئاً.

وأقفلت عينيها، ما زالت تعبة بشكل رهيب، وتساءلت أين هو الطبيب... وأين هم الآن؟ ولكن لو سألت، هل سيردّ عليها احد؟

هل هم في اميركا؟ هل سيكون «هو» بانتظارها.. آر. إس؟

وبدأ قلبها بالخفقان بسرعة، وتمسكت بيد جوليتا:

ـ لا تذهبي!

ـ لا... لن أذهب. أرجوك أن لا تقلقي!

ـ لا أستطيع... اين نحن؟

ها قد سألت.

وأجابها جون «نحن في المكسيك يا ميلا!».

☆ ☆ ☆

٦ ـ كل شيء على ما يرام!

المكسيك!.. ولماذا المكسيك؟ وشعرت بضغط يد جوليتا المطمئنة وكأنها فهمت مدى ارتباكها.

داخل الطائرة كان فخماً، وهناك مكان لوضع الحمالة فيه، وكأن كل شيء كان محضراً سلفاً. وانحنى جون فوق ميلا وبدأ يفك الأحزمة عنها.

ـ آسف لهذا، ولكن الجزء الأول من الرحلة كان في طائرة بحرية، ولم تكن مريحة، والأمر مختلف الآن. فلن نحس حتى بأننا نتحرك.

ـ ولماذا المكسيك؟ لماذا هنا؟

ـ صديق لي يملك مزرعة قريبة. وسنأخذك هناك لترتاحي عدة أيام.

ـ ولكنني لا أريد...

وفك آخر رباط، واستطاعت أن تتحرك بحرية أكبر. واقبلت جوليتا تحمل كوباً من الماء الصافي. فقال جون:

ـ اشربي هذا الآن... وسنتحدث فيما بعد.

ـ لماذا تعاملني كطفلة؟

ـ لأنه حدث لك حادث مؤذي. وأنت لست في وضع يسمح لك بإقلاق رأسك.. ارتاحي فقط.

بعد بضع دقائق بدأت الطائرة تتحرك فوق المدرج. هذه الحركة التي توقف القلب وهي تقلع، ثم استقرت الطائرة، وسارت بهدوء كما قال جون وكأنها لا تتحرك. وانبعثت الموسيقى، وجلست الممرضة الى جانبها والرجلان في المؤخرة يتحدثان، وفكّرت ماذا تفعل طائرة مكسيكية بطاقم اميركي، وموسيقى غربية، ولكن التفكير أجهدها... وعندما استفاقت ثانية.. كانوا قد وصلوا إلى حيث هم ذاهبون!

كانت مستلقية في فراش ضخم، والغرفة تبدو غير واضحة المعالم. الى أن رفت بعينيها عدة مرات. وبدأ كل شيء يتوضح، كانت لوحدها، والباب مفتوح، ومن بعيد سمعت أصواتاً. وقرقعة أواني فخارية. ورجل يغني. فرش الغرفة كان بسيطاً، ولكن جميل جداً، بخزانة جوارير، وطاولة زينة من خشب الصنوبر. وعلى الجدران البيضاء عدة لوحات، منظر جبلي في ضوء القمر، منظر بحر، ورسم فتاة شابة. ونادت ميلا عالياً:

ـ جوليتا؟ جون؟...

وسمعت حركة في الخارج ودخل رجل بهدوء، كان مسناً شعره أبيض وملتحي، وخداه متوردان وعيناه زرقاوان، وابتسم لها. وردت له الابتسام وقالت:

ـ آسفة لإزعاجك، ولكنني أريد الممرضة. هل تعمل هنا؟ هل تتكلم الإنكليزية؟

ـ أجل.. سأذهب لأحضرها لك إنها تأكل على ما أظن.

ـ أوه... أرجوك لا تزعجها.. أستطيع الانتظار.

ـ هل احضر شيئاً لك؟

ـ أريد وسادة، ولكن لا أظن أن هذا مسموح لي، أليس كذلك؟

ـ اظن هذا.. هل رأسك ما زال يؤلمك؟

ـ ليس كثيراً... ولكنني أكاد أموت جوعاً.. هذا ما أعرفه تماماً.

ـ آه أجل.. هذا طبيعي.. سأذهب و...
ـ لا انتظر أرجوك.. لا أعرف اسمك.
ـ اسمي.. خوليو.
ـ خوليو... أنت تتكلم الإنكليزية ببراعة.
ـ شكراً سينوريتا.
ـ أرجوك ناديني ميلا. هذا اسمي.
ـ ميلا؟ شكراً لك. سأذهب الآن وأرى ماذا استطيع أن أحضر لك لتأكلي.

وخرج بصمت وأغلق الباب، وتركها لأفكارها. بدا لها الرجل هادئاً، قوياً، وله ميزات أخرى لم تستطع ميلا أن تدركها تماماً. ثم عرفتها. إنه الوقار. كان يتحرك ويتكلم بنوع من الوقار، لا بد انه كان ينتظر في الخارج لبرهة، قبل ان تستيقظ. واستلقت في الفراش، وحدقت في السقف. ثم تساءلت: هل كان جون سيتصرف معها هكذا لو أنها لم تحصل لها حادثة؟ ام أنهما كانا سيذهبان رأساً الى أميركا، والى آر. اس؟

وقطعت أفكارها دقة خفيفة على الباب، ودخلت جوليتا. وتبعها جون.

ـ أنت جائعة؟.. سنحضر لك إذاً بعض الطعام.

وتقدمت لتقيس نبضها، ثم تابعت:

ـ في وقت قادم من هذا اليوم سنأخذ لك صور أشعة. أليس كذلك سنيور كاليهن.
ـ أجل.. عندما تكون قد ارتاحت.
ـ هنا؟ صور أشعة هنا؟
ـ لقد أتينا بآلة تصوير من مستشفى قريب.. آلة محمولة صغيرة.
ـ طائرتين للعودة بنا إلى هنا.. والآن آلة محمولة صغيرة. قل لي

من يدفع كل هذه المصاريف؟

وقالت جوليتا «أرجوك سنيوريتا، اهدأي. نبضك يتسارع...».

ـ لا أهتم يا جوليتا.. جاوبني يا جون.
ـ لقد سمعت ما قالت جوليتا.. يجب أن تبقي هادئة...
ـ أريد أن أعرف.. هل هو؟ هل من يدفع هو الرجل الذي تدعوه جدي...

وعند تلك اللحظة دخل خوليو يحمل صينية، وأجفلت ميلا.. خطواته كانت ثابتة ومطمئنة وهو يسير نحو الفراش وينظر إلى ميلا. ثم ابتسم قليلاً بحزن، وقال:

ـ أنا آسف.. هل دخلت في لحظة غير مناسبة؟ سأخرج وأنتظر.

فقالت ميلا «لا.. شكراً لك يا خوليو. جوليتا هل أستطيع أن أجلس قليلاً بينما أتناول طعامي؟».

ـ طبعاً!

وشاهدتها ميلا تتبادل النظرات مع جون.. وكأنما تسأله شيئاً. وشاهدت هزة رأس جون.

وبدأت بتناول طعامها، تساعدها جوليتا، وقد غادر الرجلان الغرفة. وقالت لها جوليتا:

ـ عندما تنهين طعامك، سأغسل وأغير لك ثيابك. وستشعرين بتحسن.
ـ أجل يا جوليتا... الخادم.. خوليو الذي أحضر الطعام، هل يعيش هنا؟
ـ ولماذا تسألين؟
ـ لا أعلم. يبدو لي وقوراً جداً.
ـ أجل إنه كذلك.. هل اكتفيت من الأكل يا ميلا؟

- أجل.. شكراً.

- جيد.. والآن عندك حمام خاص... هناك. وقال الدكتور إنك إذا كنت تشعرين بما يكفي من القوة، فسأساعدك لتغتسلي واذا كنت لا تشعرين بقدرتك، فسأغسلك هنا.

- أوه.. لا.. أرجوك.. أريد أن أحاول.

التصادم التالي مع جون أتى في وقت لاحق من ذلك اليوم.

فقد أخذ لميلا صور الأشعة، وغادر الطبيب المكان مع جوليتا الى المستشفى لإعادة آلة التصوير، وانتظار تظهير الصور. واستلقت ميلا على الفراش الضخم، وسمعت قرعاً على الباب وصوت جون يقول:

- هل أدخل؟

- تفضل.

كانت تريد أن تراه لوحدهما، ولكن لم تسنح لها الفرصة. عدة اشياء كانت تغلي في ذهنها، يجب أن تقولها قبل أن تنفجر.

- أريد أن اتكلم معك.

- وهل تريدين هذا الآن؟ هناك وميض معين في عينيك. لذا قبل أن تتكلمي معي.. سأقول لك ما أتيت أسألك، هل تريدين شيئاً لتأكليه أو تشربيه؟

- لا شكراً لك. هل تجلس أرجوك؟ فقد آلمتني عيناي وأنا أنظر الى فوق باتجاهك.

- حاضر يا سيدتي... حسناً والآن... هيا ابدأي...

- أولاً.. كيف تم تدبير كل شيء بدقة لقدومنا إلى هنا بعد الحادثة؟ ولمن هذه المزرعة؟ ومن استأجر الدكتور والممرضة؟ و...

- مهلك لحظة: سؤال في كل مرة فقط! وكيف استطيع تذكر كل شيء؟ أولاً.. لنوضح شيئاً.. أنا لم أدبّر لك حادثتك. لقد فعلتي هذا بنفسك..

- لم أطلب منك محاضرة.

- ولن تحصلي على محاضرة، لذلك اصغي لي لمرة فقط. من المفترض أن تكوني في فترة راحة، وأن لا تجادلي، وإذا بدأت، سأخرج وأتركك لوحدك..

- أنت متوحش!

- لا زالت روحك مليئة بحب القتال. أليس كذلك يا حلوتي...

- لا تناديني بحلوتك...

- واو.. حسناً.. يا ميلا. هل هذا أفضل؟ أولاً لقد أصبت بأذى. وهذا أمر طارىء. كنت خططت لشيء آخر. أتريدين معرفته؟ لقد كنت مصمماً على البقاء قرب تلك الجزيرة لعدة أيام. لنتمكن من التحدث معاً دون محاولات هربك طوال الوقت، ولأستطيع إقناعك بالمنطق...

- لا تكن سخيفاً: وهل تظن أنني ببقائي في مكان بعيد، قد أبدأ بالاستماع لك...

فوقف وحرّك كرسيه مبتعداً عن السرير، فأضافت ميلا بعجلة:

- حسناً.. حسناً لن أقاطعك ثانية.. تابع كلامك...

وتردد، فنظرت إليه، وعرفت من التعبير الظاهر على وجهه أنه ينوي فعلاً تركها، وملأت الدموع عينيها، مما حجب صورته عنها، وحركت جفنيها بصعوبة، ثم سمعت صوت الكرسي يتحرك ثانية، ورأته يعود إلى الجلوس.

وعاود كلامه وكأن شيئاً لم يقاطعه.

- أتمنى أن أجعلك تدركين أن ما كنت أفعله لا يبعد عن الاختطاف. كنت حضّرت كل شيء، ثم اختفيت ولم تعودي وبدأت أبحث عنك.. فتشت الجزيرة كلها، ولكنها كانت كبيرة. وعدت إلى المركب لأحضر القنديل الكهربائي، عندما حل الظلام. وعندما

وجدتك ظننتك ميتة. ولا أريد ان أمر بمثل ما مرّ عليّ عندها ما بقيت حياً. ثم تحركتي، ولم يكن لديّ فكرة عن مدى إصابتك، وكنت أعلم أن عاصفة على وشك الهبوب. فأخذتك إلى المركب ثم اتصلت بالقاعدة في المكسيك، وهم من حضّروا كل شيء. أية أسئلة؟ سؤال سؤال أرجوك؟

- من يملك هذا المكان؟

- علمت أن هذا سيكون أول سؤال.. إنه خوليو.

- خوليو؟ أوه لقد ظننت!... ظننت أنه خادم وجوليتا قالت.. أوه... يا ربي.. الأفضل أن أعتذر له...

- لن أعتذر لو كنت مكانك. ستحرجينه. رغبته الوحيدة هي المساعدة. صدقيني. وطالما نحن هنا فالمكان تحت تصرفنا، هكذا قال لي.

- اوه.. إنه لطيف جداً.

- لقد عرفته منذ سنوات، إنه فعلاً لطيف. السؤال التالي!

- هل تجلب لي مرآة. أرجوك؟

- لا.. ليس الآن...

- ولماذا؟

- لانك ستقلقين رأسك الجميل حول...

- لا تلقي الأوامر عليّ!

- ها قد عدتِ من جديد! اسمعي يا حلـ... يا ميلا، في وجهك عدة كدمات وعين سوداء.. و....

- أعلم.. أتظن أنني لا أعلم هذا؟ أريد فقط أن ارى بنفسي. أعدك بأن لا اصبح هيستيرية.

- اوكي.. لكن تذكري، كما أكدّ لي الطبيب، أنك خلال أسبوع سيشفى وجهك وتعودين إلى طبيعتك.

ووقف، ودخل الحمام وسمعت صوت الخزانة تفتح ثم تقفل.

- هاك.. خذي نفساً عميقاً قبل أن تنظري.

وأعطاها المرآة، وأطاعته ميلا، فأخذت نفساً عميقاً قبل أن تنظر، ثم شهقت.

- اوه... اوه..!

وأغلقت عينيها وأعادت له المرآة. فقال:

- كان من الممكن أن يكون الأمر أسوأ. لقد وقعت عن التلة إلى الأسفل. اتذكرين؟ أسنانك سليمة، والكدمات ستذهب، والجروح ستشفى...

- أعلم.. أعلم... أتمنى لو أنني لم أطلب منك.. أنا أبدو مريعة!

- وماذا تريدين أن أقول؟ أنك لست هكذا؟ سأكون كاذباً لو فعلت.. مسكينة يا ميلا... أنا آسف، هذا كل شيء أستطيع قوله!

- أرجوك اخرج من هنا. أريد أن أبقى لوحدي.

وترقرقت الدموع في عينيها، وانحدرت على خديها لتبلل الشراشف التي تستلقي عليها. وبدأت تشعر بالألم في كل أنحاء جسدها، وآلمها رأسها وشعرت بالتعب. التعب من كل شيء. لم تشعر في حياتها بمثل هذا الضياع والوحدة، إنها في بلد غريب، ما بين غرباء، ولا واحد منهم يهتم بها فعلاً. هي بالنسبة لهم وظيفة يؤدونها، لأن هناك عند نهاية الخط في مكان ما رجل ثري، وقوي السلطة، يحصل دائماً على ما يريد، وهو من يدفع لهم لقاء خدماتهم. وقال جون:

- لا أستطيع تركك هكذا.. لا أستطيع.

وجاء صوتها وكأنه الهمس «ليس الأمر مهماً، ألا ترى، الأمر لا يهم حقاً».

- ظننتك مقاتلة. ولم أكن أظن أنني سأراك تتأسفين على نفسك.

القساوة الباردة في صوته نجحت في خداعها، ففتحت عينيها، ورفّت جفونها بقوة، وقالت:

- أنا لست متأسفة على نفسي.. كيـ... كيف تجرؤ على هذا القول!

- لقد كدت تخدعيني. هيا، اغرقي في الشفقة على نفسك...

- أغرق؟.. هه! لم أصل الى هذه الحالة لولاك!

- لا.. بل كنت ستبقين عبدة في ذلك الفندق.

- أنا واثقة أن ذلك كان أفضل.

- لا بد أنك تمزحين! أفضل مع ذلك المسخ ماتياس؟ ممكن أن تقولي أيضاً انه لم يكن سيئاً أبداً كأخ لك بالتبني...

- كنت أدبّر أموري.

- اوه.. أكيد.. مثل يوم أمسك بك في «الكابين»؟ لو لم أكن هناك...

- لكنت تخلصت منه بنفسي. مشكلتك أنك تظن أنك ذكي جداً...

- ولكنني واثق أنني أذكى منه.

- مغرور ايضاً.

- أذا أحببت أن تصفيني هكذا.. من المفروض أن ترتاحي لا أن تتجادلي معي.

- وهل انت من النوع السهل الجدال معه. أراهن أنك تمضي حياتك في عراك مع الآخرين.

- معك فقط. وليس مع أحد آخر. فانا أعيش بسلام مع الآخرين.

- ما عداي؟ لا أصدقك!

- كما تشائين وبما أننا ننتهي دائماً بالشجار.. سأذهب وأتركك لوحدك، كما طلبتي.. هل هناك شيء تريدينه قبل أن أذهب؟

- لا..

وادارت وجهها بعيداً، وقلبها يخفق بشدة، وكل الأفكار تلاشت من ذهنها. كان هناك فكرة تراودها، عندما سيذهب، ستحاول أن تخرج من السرير بمفردها، وتسير إلى النافذة. لتنظر إلى الخارج.

- لا.. لا أريد شيئاً.. أرجوك اخرج.. سأحاول أن أرتاح.

وعدّت إلى العشرين ببطء بعد أن خرج، وأبعدت الأغطية وبحذر جلست في الفراش، ودارت بها الغرفة قليلاً، ثم توقفت. وأنزلت قدميها وشعرت بهما تلمسان الأرض. واستندت على الخزانة الصغيرة قرب السرير، ووقفت ودهشت عندما شعرت بخفة في قدميها. وبدت لها النافذة بعيدة، وأمسكت بالكرسي الذي كان جون يجلس عليه واتكأت على مؤخرته، وأخذت تمشي، خطوة.. اثنان، ثلاثة. الرجل اليمين، اليسار، ها قد اقتربتي... وفجأة، وبهدوء كامل.. التقطتها ذراعان، وهمس صوت جون في أذنها:

- أيتها الحمقاء الصغيرة!

- أوه.. أرجوك، أريد فقط أن أصل إلى النافذة...

وحملها بين ذراعيه، وفي لحظة أصبحت هناك، تنظر إلى الخارج. وكان جون غاضباً وعيناه تلمعان في عينيها.

- هيا.. انظري إلى الخارج. ثم سأعيدك إلى الفراش. وستبقين فيه.

لقد طلبت هذا، ومن الأفضل أن تستفيد من الفرصة، ونظرت إلى الخارج وأصيبت بالصدمة عندما شاهدت الصحراء المترامية الأطراف، أميال وأميال من الرمال. هذا كل شيء. وقال لها:

- هل اكتفيتي؟

- أجل... لا تغضب مني..
- أغضب؟ أنا أغلي بالغضب... يا رب! أنت لست إلا طفلة صغيرة عنيدة خرقاء...
- أرجوك توقف، لا أستطيع تحمل المزيد.
واستدار بها، ثم وضعها في الفراش ووقف يحدّق بها، وقال:
- لا يمكن الوثوق بك أبداً. «سأرتاح قليلاً»! ولكنك لم تفعلي.
- قلت لك.. أردت أن أرى...
- وها أنت رأيت، اوكي؟ ألا تعلمين أنك مريضة؟ وما فكرتك التالية؟ أن تسيري عبر الصحراء؟
وأدارت وجهها عنه، وجذبت الغطاء وحجبت فمها تماماً.
- هل فقدتي لسانك؟
ولم تردّ، إنها لا تستطيع مواجهته حتى وهي بصحة جيدة. وليس هناك فائدة من هذا في هذه اللحظة. وسمعت خطواته تبتعد، واستلقت هناك تنتظر عودته.
وبعد بضع دقائق، سمعت دقاً على الباب وصوت يقول:
- هل أدخل؟
- خوليو... تفضل..
ودخل حاملاً إبريقاً وكوباً، وابتسم لها:
- اعتقدت أنك قد تكوني عطشانة. لذا جلبت لك عصير برتقال بارد.
- أنت لطيف جداً.
وحاولت الجلوس، فوضع خوليو الإبريق والكوب من يده وأمسك بيدها، ثم قال «هل أستطيع أن أجلس؟».
- طبعاً.. أرجوك.. أنا آسفة جداً يا خوليو.. جون قال إن هذه مزرعتك، ولم أكن أعلم.

- طالما أنت هنا فهي مزرعتك أيضاً.
- هل قال لك جون ما حصل الآن!
- اجل...
- لقد غضب مني، ولكنني كنت أريد فقط أن ألقي نظرة.
- بالطبع... ولكنك ضعيفة جداً وأظن أنه كان خائفاً عليك من الوقوع أكثر من الغضب منك.
- لقد خدعني، إذاً! لقد كان يغلي من الغضب.
والتقت عيناها بعيني الرجل العجوز، وومضت شعلة من العاطفة بينهما، وأخذ يضحكان. ها هنا شخص يفهمها حقاً. وشعرت بأنها أحسن حالاً. ورشفت قليلاً من العصير، وتنهدت برضى «هم م.. إنه لذيذ.. شكراً لك خوليو».
ونظرت إليه وشعرت أنها تستطيع الثقة بهذا الرجل. وقالت له:
- هل تعرف شيئاً عن خطط جون؟
- أجل.. أعرف، إنه ينوي أخذك إلى اميركا عندما تتحسن صحتك.
- لألتقي رجلاً أكرهه!
- جدك؟ ولماذا تكرهينه يا ميلا؟
- لأنه رجل قاس وظالم.. خوليو، هل تعرفه؟
- أعرفه.. أجل. ولكن ربما ليس بالقدر الكافي.
- أخبرني كيف شكله.. لم أستطع معرفة شيء من جون. ما عدا أنه رجل رائع.
- أظن أنه عجوز وحيد.
- وحيد؟ مع كل ملايينه؟
- لا أظن أن المال يأتي دوماً بالسعادة، هل تظنين هذا يا ميلا؟
- أنا واثقة أن المال لا يفعل هذا. ولكن قد لا يظن هو هذا. قد

يظن إنه يستطيع شراء عاطفتي. وسيجد أنه على خطأ.

- ألا تحبين أن تعيشي بفخامة؟ لقد أخبرني جون كيف كانت حياتك في الفندق.

- وهل فعل؟.. كل ما أريده من الحياة.. هو...

وأكمل عنها خوليو بلطف:

- أجل يا ميلا... ماذا تريدين؟

- لا أعلم.. أن أكون سعيدة فقط... أن أكون منتمية إلى مكان ما...

- آه.. أجل... تنتمين إلى مكان ما.. أنت صغيرة يا ميلا. والحياة لم تكن مريحة بالنسبة لك، لم تعطك فرصتك؟

- ولا يبدو أن عندي فرصة مع جون. إنه مصمم على فعل ما يريد. لقد أتى إليّ كبولدوزر بشري، وقبل أن أدري، أصبحت هنا.

- أجل.. أعتقد أنني أفهم كيف تشعرين. ولكنه ليس بالرجل القاسي.

- لا.. ليس قاسياً بطبيعته... ولكنني صعّبت الأمور عليه.

- أخبريني ماذا فعلت له.

وأخذت تقص عليه ما جرى، منذ البداية. كشفت عن كل شيء. وبدأت ترى بعض الجوانب المرحة. وعندما وصلت إلى نقطة القفز الى البحر وكيف قفز جون لينقذها، رفع يده إلى وجهه برعب.

- أوه.. لا.. لا يا عزيزتي ميلا.. وهل كان هناك أسماك قرش؟

- كان هناك واحد على الأقل. ولكنني أعتقد أنه يكفي، ثم ضربني وغبت عن الوعي.

- ماذا فعل؟

- أوه.. لا بأس.. كنت استحق هذا، وهي الطريقة الوحيدة لإرجاعي إلى المركب. كنت مصممة على السباحة...

- اشربي قليلاً من العصير ثم ارتاحي. لقد جعلتك تتكلمين كثيراً. يجب أن تسامحي الرجل العجوز يا ميلا.

- اوه لا... لقد تمتعت بالحديث معك! لقد جعلتني أنسى كم كنت آسفة على نفسي! ولكنني تعبة، ورأسي يؤلمني...

- أجل.. أجل.. أعلم هذا.. سيعود الدكتور والممرضة عما قريب وسيعطونك شيئاً. ألن ترتاحي الآن؟

- أجل.. شكراً لك على الشراب، كان لذيذاً. قبل أن تذهب... أشعر أني يجب أن لا أدعوك بخوليو... يبدو هذا غير منطقي بطريقة ما...

ووقف وراقبها وهي تستلقي وترتاح.

- ولكنني أفضّل هذا، حقاً. وأنا سعيد لدعوتك لي بهذا الاسم. والآن نامي يا صغيرتي. لن أبتعد عنك كثيراً.

وخرج، وأغلق الباب وراءه. كم هو لطيف، وكم هو متفهم. شعرت معه بأنها في بيتها. يمكن أن يكون حليفاً لها، أو ربما، صديق. كانت فكرة مطمئنة لها. وأغمضت عينيها وهي راضية أكثر مما كانت عليه منذ فترة. إنه الى جانبها، وقد عرفت هذا فوراً. ربما، ربما، ستفكر ببعض الخطط فيما بعد، عندما لا تكون تعبة، ودخلت كلمة إلى رأسها، لوّنت أحلامها: الخلاص.. الخلاص من جون ومن آر. أس.

☆ ☆ ☆

٧ - حليف جديد

في اليوم التالي كانت ميلا تشعر بأنها أفضل بكثير. وأظهرت صور الأشعة أنها لم تكسر أيٌ من عظامها. وأمضت ليلة خالية من الألم وبنوم عميق، بعد أن تناولت حبوباً منومة، واستحمّت بمساعدة جوليتا.

وجلست في سريرها تنظر حولها في الغرفة المشمسة، ورتبت وسادتها الوحيدة برضى، كانت قد دهشت عندما سمح لها الدكتور باستخدام وسادة. ودخلت سيدة مكسيكية في أواسط عمرها ترتدي ثوباً اسود، وقالت لها بإنكليزية مكسرة:

- صباح الخير سنيوريتا.. أنا ادعى ماريا.

- صباح الخير ماريا.

ونظرت إلى الصينية التي تحملها بسعادة.

- يبدو الطعام لذيذاً.

- شكراً، هل أعجبك الطعام.

- أجل.. كل شيء يبدو لذيذاً.

- بوينو.! أي شيء خاص تطلبينه، اسألي ماريا، وأنا أحضره لك.

- هل أنت من يطهو الطعام؟

- نعم سينوريتا. انا. والليلة للعشاء سأحضر طعاماً مكسيكياً، حار جداً. هل يعجبك؟

- لم اذق مثله من قبل. ولكنني متأكدة أنني سأحبه.

ووضعت ماريا الصينية على الطاولة، ورفعت وسادة ميلا.

- والآن.. كلي جيداً. وكما نقول في مكسيكو.. بوانو أبيتيتو.! غراتسيا..

على الأقل أصبحت تعرف كلمات إسبانية. وستعرف المزيد قبل أن تغادر المكان.

- سأعود لأخذ الصينية فيما بعد. ولكن دقي الجرس إذا أردت شيئاً مني!

- أوكي؟

وخرجت ماريا. فأكلت ميلا، ثم استراحت، وأصبحت ضجرة.

وبعد قرع خفيف على الباب دخل خوليو الغرفة وقال:

- صباح الخير ميلا.. هل تشعرين بتحسن؟

- أجل..

- جيد. هل تحبين أن تتفرجي على مزرعتي؟

- أوه.. أجل! ولكن كيف؟ جون لن يسمح لي...

- آه.. انتظري.. لدينا كرسي متحرك. وإذا دفعتك عليها، وهذا ما وافق الطبيب عليه، سيكون كل شيء على ما يرام. ستدخل جوليتا الآن لتساعدك على ارتداء ثيابك. ثم سأعود.

ودخلت جوليتا تحمل روباً طويلاً أزرق اللون، وارتدته ميلا فوق البيجاما، ثم جلست على حافة السرير بينما أخذت جوليتا تمشط لها شعرها.

- هاك.. لقد اصبح مرتباً الآن.. هل أنت مستعدة؟

- أجل.. شكراً لك.. أين جون؟

- أوه.. لقد خرج باكراً ليركب الجياد. هناك العديد من الجياد الجميلة هنا، وربما يكون الآن قد عاد وهو يسبح في البركة.

- بركة؟.. هنا؟..

- أجل.. سترينها بنفسك..

وقرع الباب، ودخل خوليو يدفع أمامه كرسي متحرك بدا جديداً وساعدت جوليتا ميلا على الجلوس فيه، ثم وضعت غطاء صارخ الألوان على ركبتيها. وخرجوا من الغرفة.

وكأنما أطلقت من سجن، شعرت ميلا بريح الحرية عندما فتح الباب، وسارت عبر الممر البارد، وهي تنظر حولها إلى الأبواب العديدة على جانبي الممر، فقال خوليو بنعومة:

- سأريك الغرف فيما بعد. من الأفضل أن تري الخارج أولاً.

- أوه.. أجل.. أنت لطيف جداً يا خوليو.

- هذا من دواعي سروري.

ووصلا الى نهاية الممر، ثم انعطفا شمالاً. وأمامهما مباشرة باب زجاجي في حائط زجاجي يطل على فناء من الأحجار الملونة تضيئه الشمس.. ووراءه بركة سباحة كبيرة، وعليها لوح غطس، وكان جون يقف عند طرفها. وانتظر خوليو قليلاً قبل أن يفتح الباب، وقفز جون قفزة رائعة ليدخل المياه الخضراء، وشاهدت رأسه الأسود يتحرك تحت المياه. ولمس خوليو زراً في الجدار وانزلق الباب ليفتح، ولفح الهواء الحار وجه ميلا، وأدركت فوراً أن داخل المنزل كان مكيفاً.

وخرجا إلى الباحة الخارجية، التي يحيط بها من كل الجهات منزل ريفي سقفه أخضر، وفي الوسط بركة السباحة. ومن حولها مقاعد جميلة ملونة، أحمر، أخضر، أصفر، كلها تلمع في ضوء الشمس التي كانت تتراقص فوق المياه، وكان هناك باب مقفل عند نهاية جدار بعيد.

ودفع خوليو الكرسي المتحرك ببطء حول حافة البركة، وظهر رأس جون فجأة على مقربة منهم.

- هاي! أتحبين أن تغطسي؟

والتفتت إلى خوليو وقالت: «هل تتصور ماذا سيفعل لو قلت له نعم؟».

وقالت لجون: «ربما فيما بعد» ووقف في الماء براحة، وكوعيه على الحافة يضحك لهما معاً.

- اوكي.. أتريدان مساعدة؟

واجابه خوليو:

- لا.. أستطيع تدبير أمري. شكراً يا جون. سآخذ ميلا لرؤية الجياد، ثم في جولة حول المزرعة.

- عظيم.. سأراكما فيما بعد.

وغطس تحت الماء، وابتعد بقوة، بسهولة وسرعة كالسمكة. فضحك خوليو وقال:

- بولدوزر بشري.. أجل هذا هو جون.

والتفت إلى ميلا ورآها تبتسم بسعادة فقال:

- مكافئتي أن أراكِ سعيدة.

- سعيدة؟ كيف أكون سعيدة، وأنا أعلم ما ينتظرني في أميركا؟

ولكنها بطريقة غريبة شعرت ببعض الاطمئنان، فخوليو كان مضيفاً رائعاً، وسيبقى هكذا مهما تغيرت الظروف.

ووصلا إلى الباب عند الجدار الخلفي وتقدم ليفتحه. ونسيت ميلا كل أفكارها وما كانت على وشك أن تسأله، عندما شاهدت وراء الباب، لقد دخلا إلى حديقة مليئة بالأشجار والشجيرات الصغيرة والزهور، وعند طرفها اسطبلات مطلية بلون أبيض، ومن وراءها مرجة كبيرة ترعى فيها الجياد. ونظرت خلفها نحو خوليو متعجبة:

- آه.. أجل.. هذه أهدأ غرفة في المزرعة وكان ضرورياً أن نضعك فيها. كي لا يزعجك شيء. ولكن كما ترين، يوجد غير

الرمال هنا.

- إنه مكان جميل! جميل تماماً.

ونظرت من حولها، آلات الريّ تعمل، وترسل رذاذ الماء من حولها باعثة ألوان قوس القزح. فسألت:

- ولكن الماء! أليس نادراً هنا؟

- لدينا عدة ينابيع جوفية وآبار. لهذا بنيت المزرعة هنا. وأنا أحب مزروعاتي وزهوري يا ميلا، هل أعجبتك؟

- أجل..! لو أنني أستطيع السير! الأمر محبط أن أجلس هنا، دون حراك. أحب أن أركض فوق العشب، وأن أغطس في البركة..

- سوف تفعلين.. اصبري قليلاً يا طفلتي..

- أنت على حق يا خوليو.. حالما أصبح أفضل.. ولكن جون عندها سيأخذني...

- سأتحدث معه حول الأمر.

- ماذا تعني؟

- لقد انتظر جدك آر. اس. كما تسمينه، طويلاً، ويستطيع الانتظار فترة أخرى. إذا قلت لجون ان عليك البقاء إلى أن تصبحي بأحسن حال كي تقرري بنفسك ما تريدين فعله.. سيصغي إليّ..

- أتعني..

وتوقفت، خائفة من أنها لم تفهم ما سمعت. هل يعني حقاً ما تفكر به؟

- أتعني أنك ستقنع جون بأن يتركني أبقى هنا.. وأختار بنفسي ما أريد أن أفعل؟

- أليس هذا ما ترغبين به؟

- ولكن جد.. آر. أس. قد وظّفه لارجاعي إليه، وهو ليس برجل

بترك الآخرين يقررون عنه. ولا بد أنه يعرف أنني هنا..

- إذاً... يجب أن أستخدم كل تأثيري عندما أتحدث معه. أليس كذلك؟

- جون.. أم آر. أس.

- كلاهما.. إذا أحببت.

- لقد كنت لطيفاً معي، حقاً يا خوليو. ولا أستطيع أن أكون السبب في مشاكل بينك وبين آر. أس.. أو جون بهذا الخصوص. فأنا أكره أن أكون سبباً في دمار صداقة قديمة.

- ولكنك تكرهين آر. أس.

- ولماذا تهتم بهذا الأمر؟

- أنا أهتم بعدة أشياء.. من الصعب أن أشرح لك... ولأن حياتي لم تكن وروداً على الدوام، فلا يعني هذا أنني لا أرغب السعادة للجميع...

- أنا آسفة يا خوليو... فأنا لست واضحة بعد أمامك. أليس كذلك؟

- أظن أنك جيدة الآن. لفتاة صغيرة في عمرك، أنت تملكين تلك الصفة النادرة.. الحنان. فالمرء لا يمتلك هذه الصفة قبل أن يصبح كبيراً في السن، وغالباً ما يكون الوقت قد تأخر عليه.

وجهه كان هادئاً وجدياً، وتقريباً حزين. ونظر إلى ميلا وقد وضعت يدها فوق يده وابتسم.

- إن التحدث معك مبعث سرور، هل تعلمين هذا.

- شكراً لك، وأنا مسرورة للتحدث معك، أشعر أنني أعرفك منذ أجيال وأجيال...

وتوقفت، وترقرق الدمع في عينيها، ونظر إليها خوليو فرأى تلك الدموع، فهز رأسه وقال:

- لا دموع يا ميلا! فهذا يجب أن يكون يوماً سعيداً لك. تذكري؟ والآن لقد تكلمنا ما فيه الكفاية. ولا أريد إبقائك.. وإلا سيوبخني جون ويمنعني من رؤيتك!

وغمز بعينيه ليخفف حدة قوله. والتقطت أنفاسها، وغمزت بدورها وابتسمت.

- طبعاً.. وهذا لن يفيدنا! قل لي يا خوليو.. هل هو دائماً متسلط؟

- متسلط؟

وأرسل رأسه إلى الخلف وضحك عالياً:

- هل هكذا هو معك؟ أجل.. اعتقد هذا.. آه يا جون. ولكنه رجل شجاع يا ميلا، وقوي وقاسي، ولكنني لا أعرف أنه يفعل شيئاً غير لطيف، أو شرير. لقد خاطر بنفسه مرة في فيتنام لينقذ أماً وطفلها..

وتوقف، كأنما يفكر وهو يهز رأسه. فتوسلت إليه ميلا..

- أرجوك لا تتوقف عن الكلام!

- لا.. كنت أحاول فقط تذكر التفاصيل. لم أسمع القصة منه، بالطبع. فهو يعتبر الحادثة غير مهمة. لقد أخبر القصة الرجال الذين كانوا معه في الغرفة، وخطفت مخيلة الأميركيين وأصبح بطلاً..

- ولكن ماذا حدث؟ أرجوك أخبرني.

- حسناً.. هو ورجاله كانوا تحت مرمى نيران كثيفة في قرية مهجورة.. يتعرضون لهجوم بمدافع الهاون من الفيتكونغ، ولسبب ما لم يصل اليهم الدعم، فقرروا عندها الانسحاب، إلى أن تصل التعزيزات. ثم، وفي فترة سكون تحدث دائماً خلال المعارك، سمعوا صوت طفل، الصوت كان من منزل مهدم. ودون تردد، كما قيل فيما

بعد في التقارير، أمر جون رجاله بالتراجع، وبأنه سيذهب لرؤية ما هناك. وكان المنزل بعيداً عنهم، والقذائف تنفجر في كل مكان، وركض متلوياً في سيره، واختفى داخل البيت، وكان عليه أن يحفر بيديه، ووجد امرأة شابة وطفل مصابان بين الركام. وأخرجهما معاً، المرأة على كتفه والطفل تحت ذراعه، وبندقيته في اليد الأخرى، لقد أنقذ حياتهما يا ميلا.

وأغمضت عينيها وهي تتخيل المنظر الذي وصفه خوليو.

- أوه.. وماذا حصل بعدها؟

- أخذهما إلى مستشفى الميدان. للعلاج، ثم عاد إلى القتال. وهكذا ترين، إنه رجل شجاع، ويملك شعور الحنان ايضاً. وكما كانت الأمور عليه يومها، وقد فقد العديد من الرجال في المعركة، لما كان أحد يلومه لو أنه أمر بالانسحاب الكامل. فمن كان يدري ماذا سيواجهه؟ فقد يكون المنزل مفخخاً، أو أي شيء. وعندما سألته فيما بعد، بوقت طويل، قال إن أي إنسان قد يفعل ما فعله في ظل تلك الظروف، ولكن هذا ليس صحيحاً. فالعديد من الناس قاسوا من الحرب، وخاصة الأطفال، ولكن في ذلك اليوم، ولأن شخصاً ما كان مهتماً، حياة شخصين قد أنقذت.

- ولكنه لن يغير رأيه. بالتأكيد أنت ترى هذا؟ على كل، لقد قلت إنه دائماً ينجز المهمة الموكولة له، أليس كذلك؟

- هذا صحيح.. سنرى إذاً، أليس كذلك يا ميلا؟

وابتسم ابتسامته اللطيفة، والتقطت ميلا أنفاسها. ها هنا رجل آخر يشبه بطريقة ما جون. لقد لاحظت وقاره وثقته بنفسه منذ أن التقته في المزرعة... هل سيلتقي جون بندٍ له؟ ستعرف عما قريب. ووقف خوليو قائلاً:

ـ تعالي.. سنرى الجياد الآن. ثم شراب بارد لك تحت ظل الخيمة وتذكري.. نحن نعيش كل يوم بيومه.

وبهذه الكلمات التي رنّت في أذنيها، بدأ يدفع الكرسي المتحرك أمامه نحو الاسطبلات...

ـ وهكذا.. هل أعجبتك المزرعة يا ميلا؟

ووقف جون قربها عند البركة ونظر إليها وتابع:

ـ هل هذا أفضل من الاستلقاء في الفراش؟

ـ أجل.. لماذا لا تجلس؟

ـ شكراً.. سأجلس.

وجلس على الكرسي الطويل، وتناول شرابه، ثم مدّ رجليه وضحك لها: «هذه هي الحياة.. هه؟».

وبدا جون مرتاحاً، ولكن كم سيبدو مختلفاً فيما بعد، وابتسمت لنفسها فقال جون:

ـ على الأقل أنت سعيدة الآن أكثر مما كنتِ عندما وصلت إلى هنا.

ـ كنت أفكر فقط بأن حياة الكسل تلائمك أكثر.

ـ أوه طبعاً! ومن يرغب في العمل إذا استطاع أن يعيش هنا؟

وصدر عنها جواب، بحدة أكثر مما كانت تقصد:

ـ ولماذا لا تفعل هذا؟ خوليو يحبك.. وأنا واثقة أنه سيسمح لك بركوب جياده لتتمرن...

ـ احذري.. لن نبدأ معركة أخرى، أليس كذلك؟ يا إلهي، وظننت أنك قد هدأت. يبدو أنني كنت مخطئاً...

ـ وكيف أهدأ.. معك؟ أنت كثير الثقة بنفسك...

ـ لقد طلبت مني الجلوس معك، أتذكرين؟ لو علمت أنك ستبدأين بإهانتي لفكرت مرتين قبل...

ـ لا أتصور أحداً يستطيع إهانتك.. وليس عليك أن تبقى... فأنا قادرة على الجلوس لوحدي، دون الوقوع في الماء أو أي شيء آخر.

ـ لا أعرف.. ولكن يبدو أن عندك موهبة في الوقوع بالمشاكل عندما تكونين بمفردك..

ـ هذا لأنني كنت أحاول الخلاص منك!

ـ وهنا أنت لست معي.. حسناً، يبدو أنني أتيت بك إلى المكان المناسب. على الأقل هنا أستطيع الراحة، ولن يكون عليّ مراقبتك. على كل أنت لست قوية كفاية لمحاولة الهرب...

فابتسمت ميلا، ابتسامة غامضة، وأدارت رأسها بعيداً عنه، فقال بقلق «لما هذه النظرة الغامضة؟».

ـ لا أعرف ماذا تعني.. فقط لأنني ابتسمت...

ـ وكأنك قطة وقد وجدت الزبدة. أوكي يا حلوتي، حافظي على سرية ما يضحكك إذا كان هذا يسعدك...

ـ لقد قلت لك أن لا تناديني يا حلوتي!

ـ أجل.. لقد سمعتك. يا حلوتي، حلوتي، حلوتي.. جيد هذا؟ أنا لا أفعل ما أؤمر به، أكثر مما تفعلين أنت، وماذا تستطيعين فعله بهذا الخصوص.. يا حلوتي؟

وضحك.. واستدارت ميلا.. وأغلقت عينيها.. وقالت:

ـ اذهب عني...

ـ طبعاً.. سأذهب وأسبح قليلاً.. أراك فيما بعد.

وسمعت صوت قفزة إلى الماء، وملأها الرذاذ، ففتحت عينيها ورأته يبتعد. جون ليس بالرجل العادي. لقد أدركت هذا منذ أن تكلما مع بعضهما أول مرة على الشاطىء، ورأت فيه طريقاً للخلاص. وبطريقة ما. ومن حيث لا يقصد، قد يصبح واقعاً، بالاعتماد على خوليو.

وأعادت النظر إليه، كان واقفاً عند الناحية الأخرى من البركة يتحدث إلى ماريا، ثم أمسك بذراعها واستدارا معاً حول البركة واتجها نحو ميلا، التي كانت تنتظر، وهي تراقبهما... بل تراقبه. وشعرت بألم في قلبها، ألم لم تستطع فهمه، ما عدا أنها لم تشعر هكذا من قبل، ألم لذيذ ومؤلم حتى تساءلت ما هو يا ترى؟.

وقال جون وهو يقترب:

- ماريا تسأل إذا كنت ترغبين في تناول الغداء هنا؟

- أجل... أرجوك!

فهزت ماريا رأسها لميلا.

- بوينو... ستجلسين في الظل وتأكلين السلطة اللذيذة التي أعدّها.

- نعم وأنت أيضاً سنيور؟

- إذا سمحت لي ميلا.

فاحمّر وجه ميلا قليلا، وقالت بضعف، وهي لا تزال تجهل ما أصابها:

- طبعاً..

- إذاً سيكون هذا رائعاً. ماريا. غداء لشخصين هنا، غراتسيا.

وانحنت لهما ماريا وعادت إلى المنزل، وبقيت ميلا مع جون لوحدهما. والتفت إليها وقال بلهجة عادية:

- ماذا كنت تتحدثين أنت وخوليو هذا الصباح؟

واتسعت عينا ميلا.. ماذا يقصد؟ هل «خمن» شيئاً؟ فقالت:

- هذا.. ليس من شأنك، ولكن لماذا تسأل؟

وأخذت نبضاتها تضرب عالياً في عنقها وتمنت لو أنه لا يلاحظ هذا، وهز كتفيه وقال:

- حسناً.. هذا ليس من شأني.. انسي الأمر إذاً.

ونظر إلى الناحية الأخرى من البركة، وقد وضع يده فوق عينيه يظللهما من الشمس وكأنه يبحث عن شيء.

- لن أنساه.. ما.. ماذا دفعك للسؤال؟

واستدار لينظر اليها.

- لأنني تكلمت معه عندما كنت نائمة هنا. وقال إنه يريد التحدث معي بعد الغداء. هذا كل شيء.

ووقف، ثم استدار وغطس في الماء.

وأطلقت تنهيدة عميقة. فخوليو لم يضع الوقت، وماذا سيحدث الآن؟.. لا تستطيع أن تتخيل... ولكنها فجأة لم تعد جائعة.

☆ ☆ ☆

٨ ـ كفراشة حول اللهب

هل هو بعد ظهر يوم السبت؟ على الأقل أعتقد هذا.. وقطبت ميلا قليلاً. مركزة جهدها لتقدير ما هو هذا اليوم بالضبط، بدلاً من التفكير بأشياء أخرى قد تستحوذ عليها. كانت في غرفتها من جديد، بعد تناول الغداء عند البركة. ولكنها، رغم أن الطعام كان لذيذاً، شعرت بأن طعمه كنشارة الخشب بسبب أفكارها المتشوشة في ذهنها. وكأنما كان جون يعرف ما بها، فقد بقي صامتاً يأكل، وبدا جدياً، على غير عادة. ولكنها لم تكن تدري ما بنفسه حقيقة.

وها هي الآن هنا، وعلى الرغم من التكييف المركزي، فقد أخذت تعرق، واستلقت على فراشها منتظرة أن يحدث شيء، ولكنها لم تكن تعرف ما هو. وتقلّبت في الفراش بقلق وعيناها مفتوحتان. أين هما.. جون وخوليو؟ لا بد أن خوليو يجلس الآن في غرفة المكتبة المكيّفة مع جون.

المكتبة كانت على بعد بابين من غرفتها، ولهذا سمعها أول مرة عندما نادت، وبما أنه سمعها، فهل بإمكانها أن تسمعهم بدورها الآن؟

وجلست في الفراش، وقلبها يخفق بسرعة، لن تكون متجسسة بالضبط، بل ستتمشى بحذر وببطء حتى باب غرفتها، وترى إذا كانت تستطيع أن تسمع شيئاً. هذا كل شيء.. حقاً. وبحذر، وقفت،

ووازنت نفسها، خطوة إلى الأمام ثم أخرى حتى الباب.. ثم.. ثم ماذا؟ ووقفت هناك، وكل ما شعرت به بعض التعب والإرهاق. ثم فتحت الباب ببطء وهدوء، وعادت إلى الوقوف، تنتظر.. تنتظر.

أذناها كانت قد اعتادتا على هدوء المنزل، ثم سمعت همهمة أصوات. أصوات رجال صادرة من المكتبة. وتنفست بهدوء قدر استطاعتها، ها هنا الآن فرصتها. خطوة إلى الامام، ولن يعود الأمر وكأنها تتمشى، بل سيصبح تلصصاً للسمع. وعادت خطوة إلى الوراء نحو السرير، هذا يكفي... سوف تستلقي وتنتظر، من سيدخل عليها أولاً... جوليتا... أم ماريا. أم جون أم خوليو. ولكن هناك كرسي في الممر على بعد خطوات. تستطيع أن تسير نحوه ثم تعود. ألن تستطيع؟ طبعاً. وسارت ميلا نحوه ثم، ولأن السير أتعبها، جلست عليه بهدوء.

وأصبحت الأصوات الآن أعلى، وأوضح. أوضح لدرجة معرفة أن الرجلين يتكلمان الانكليزية وليس الإسبانية. من يجادل خوليو..؟ ربما جون.. أجل تستطيع أن تتصور هذا.. ولكن خوليو اللطيف...

وفجأة شعرت بالخوف، كان عليها ان تبقى في الغرفة وتنتظر. ولكن فات الأوان. وجف فمها، واستطاعت تمييز كلمات غريبة.. كلمات لم تفهمها... ولم يساعدها واقع أنها لم تكن تعرف من يقولها. لأن الكلمات كانت بصوت منخفض... «أظن أن هذا حكيم أكثر..» حكيم لمن؟ هل هذا جون؟ لم تستطع أن تكون واثقة، فقطبت. والرّد لم يكن واضحاً، وكان واحداً منهما قد ابتعد عن الباب، ثم عاد الصوت ثانية.. هل هو جون؟ وقاطعه الصوت البعيد:

ـ هذا جيد، عندما لا تكون تتعامل مع البشر.

ثم همهمة من جديد، ثم..

لقد فعلت أشياء كثيرة في حياتي، ولكن ليس مثل هذه المهمة من قبل.

إذاً فهذا جون، وبدا غاضباً من خوليو. وأرادت ميلا الدخول، لتوقفه عند حده. ولكنها لم تستطع الحراك. بل جلست حيث هي، متمنية لو كانت في أي مكان عدا هنا. متمنية لو أنها لم تسر إلى هناك. لأنه يبدو أن جون لن يقتنع بالموافقة على أي شيء يقوله خوليو... ويبدو كذلك أن آر. أس. له نفوذ هنا ايضاً، وأمسكت بيديها معاً، كم تكرهه! لقد قال جون إنه لا يخاف من آر. أس، ولكن لا بد أنه يخاف، وإلا لما عارض خوليو... الذي يحبه كثيراً، بمثل هذا الاندفاع.

ـ ميلا!..

ورفعت رأسها بخوف فرأت جوليتا، وقد ملأت الدهشة عينيها وأسرعت نحوها، وكأنما ما حصل كان حلماً مزعجاً، لاحظت الصمت المفاجيء في المكتبة، وسمعت الباب يفتح..

وانحنت جوليتا فوقها «لا يجب أن تكوني هنا! من المفترض أن تكوني في سريرك!» ثم استدارت ورأت جون يقف عند باب المكتبة، خلفهما.

ـ لقد كنت أقول لميلا...

ولكنه لم يكن يستمع إليها. بل يقف هناك، وقد عرف.. عرف وامتلأ عقل ميلا بالذعر. ثم تكلم:

ـ لا بأس يا جوليتا. سأهتم بميلا.. هل لك أن تطلبي من ماريا فنجاني قهوة؟

لا شيء متغير في صوته، لا شيء على الإطلاق، ولكن ميلا أحست بما هو مخبأ: الغضب، وبدأت ترتجف. واستدار وقال شيئاً لخوليو بصوت خفيض، وخرج مغلقاً الباب وراءه.

وسار نحو ميلا، وللحظة، ظنت أنه سيضربها. فأجفلت، واتسعت عيناها من الخوف، وكأنها أرنب علق في الفخ. وقال لها بنعومة:

ـ لا.. لن ألمسك.. ما عدا أن أحملك إلى غرفتك.

وانحنى، ثم حملها وسار نحو غرفتها. ووضعها في السرير متمهلاً. ثم وقف ونظر إليها.

ـ ماذا سمعتي؟

ـ لا شيء.. كنت فقط...

ـ قلت.. ماذا سمعتي؟

صوته كان كلذعة السوط، جاف وغاضب. ولم تكن قد شاهدته بمثل هذه الحالة من قبل... وأين خوليو؟

ـ أصوات مبهمة فقط.. كنت تتجادل مع خوليو.. أنا.. إنها الحقيقة...

وحدّق بها وكأنه سيقول شيئاً، ولكنه استدار على عقبيه وخرج. وشعرت شعوراً رهيباً بأنها لن تراه ثانية. ولكنها رأته.. فيما بعد ذلك المساء.. وبطريقة أسوأ مما كانت تنتظر...

* * *

بدا وكأن الجميع يتجنبها. كانت تعرف أن الأمر ليس هكذا في الواقع، ولكن مخيلتها المحمومة كانت تصوّر لها هذا بعد كل ما حصل اليوم. وشعرت بعذاب داخلي.. وبأنها ضائعة، ووحيدة. حتى وجود جوليتا المطمئن، عنايتها الرقيقة، بدت وكأنها لا تعني شيئاً. أين هو خوليو؟ وأين هو جون؟ ألن تكتشف شيئاً أبداً؟

وتناولت العشاء باكراً. ثم جلست في سريرها، وأخذت تفكر، كان الصمت يخيم في كل مكان، وكانت جوليتا قد جلبت لها راديو صغير، وبعد ان استمعت إليه قليلاً، أطفأته، وعاد الصمت ثانية ليملأ جوانب الغرفة.

كانت الشمس قد بدأت بالمغيب، وقريباً سيحلّ الظلام. وكل ما على ميلا ان تلمس الزر قرب سريرها لتضيء الغرفة. ولكنها لم تفعل، لقد كانت بحاجة إلى الظلال والعتمة، وسمعت أصواتاً، وفي مكان ما سيارة تتحرك، ومضت نصف ساعة، وبدأت تتساءل، وبجدية ما إذا كان الجميع قد ذهبوا إلى مكان ما وتركوها لوحدها. وارتجفت، صحيح أن الطقس أصبح بارداً. ولكن هذا ليس السبب. الصمت أصبح غير محتمل، ولكنها لم تكن ترغب في أن تسمع صوتاً. ولم تكن تخاف من الوحدة لأن هذا شيء اعتادت عليه خلال حياتها، فقد كانت في الواقع تفضل الانفراد بنفسها على رفقة أهلها بالتبني ورفقة ماتياس. ولكن الأمر هنا مختلف، ومن المؤكد أن خوليو لن يتخلى عنها.. أو جوليتا! أما جون فهي تستطيع تصديق أي شيء عنه.

ووقفت عند النافذة، ويداها على حافتها الزرقاء، وتنفست عميقاً وببطء، إنها تستعيد قوتها كلما مر الوقت. وقريباً ستتمكن من العناية بنفسها. وفجأة لمحت شيئاً يتحرك عند زاوية سقف الغرفة، هناك شيء ما يتحرك، أسود رمادي غير واضح المعالم.

وأحضرت ميلا كرسياً ووقفت عليه، كي تنظر إليه بشكل أفضل. وكانت فراشة كبيرة جميلة تقف هناك دون حراك. وسرّت لأنها لم تضيء النور، فهي تكره أن ترى الفراشات تحوم حول النور لتحرق نفسها. ومدّت يدها بحذر لتلتقطها.. و..

ـ ماذا تفعلين الآن بحق الجحيم.؟

وأجفلها الصوت، واستدارت، وشعرت بالكرسي يهتز، وفي اللحظة التالية كان جون يمسك بها قبل أن تقع.

جرى الأمر وكأنه بالسرعة البطيئة، شعورها بالوقوع، الوقوع، الذراعان تمتدان نحوها، والوقوع فيهما، اتصال جسديهما وهي تقع

فوقه، ثم انزلاقها إلى أن لمست رجليها الأرض. رائحة عطر الحلاقة. الصدر الرجولي، الجسد الصلب، دفئه، شعرها يتناثر حول وجهها، نفسه فوق جبهتها، دافىء ولذيذ، استحوذ عليها إلى الأبد في لحظة قصيرة. ودارت بها الغرفة واصبحت بالكاد تراه، فقط طيف غير واضح وقوي. وقاومت قليلاً لتحرّر نفسها، قاومته لأنه هو، لأن قربه منها يخيفها بطريقة لم تكن تفهمها.

ـ اتركني!

ـ حسناً أيتها القطة البرية. لا تقاوميني هكذا. لقد كدت أن تقعي، و...

ـ ما كنت لأقع لولا أن أخفتني...

ـ سألتك ماذا تفعلين؟

ونظرت إليه ميلا، المسافة بينهما كانت قليلة، ومليئة بالتوتر، وارادت أن تبتعد، وفي نفس الوقت، لا تريد.

ـ لم أكن أفعل شيئاً.. الأمر لا يهم.

ـ لا تكوني سخيفة.. لم تتسلقي الكرسي لتتسلي. ولماذا لم تضيئي النور؟

وتحرك نحو زر النور، ولكنها أمسكت بذراعه وقالت:

ـ لا.. لا تفعل، لو فعلت فستؤذيها، هنا فراشة.. كبيرة، هناك على الحائط وكنت أنوي أن أضعها في الخارج.

ونظر جون إلى فوق، ولم يتحرك بل نظر إليها، وملأ الغرفة توتر من نوع مختلف.. يدها كانت لا زالت على ذراعه، وشعرت فجأة أن هذه اللمسة لم تعد تطاق، فرفعتها ببطء. ثم تلاشت كل الأضواء واصبحا في ظلام. هناك شيء تريد أن تعرفه، الآن. فسألته:

ـ لماذا المنزل هادىء هكذا؟ أين ذهب الجميع؟

ـ لقد خرجوا إلى القرية، على بعد أميال من هنا. إلى الاحتفال.

ـ الجميع.. أتعني..

ـ أجل.. الجميع.. وبقيت أنا لأعتني بك. كنت سأدخل عليك قبل الآن، ولكنني كنت أستحم وأغيّر ملابسي بعد العشاء.

ـ ولماذا بقيت؟ لماذا لم تبقى جوليتا.. أو ماريا؟

ـ لأن المناسبة مهمة عندهم.. وأخذهم خوليو جميعاً. كل العاملين هنا. ولأنني لا أهتم، فعندما تحضر احتفالاً.. كأنك حضرت كل الاحتفالات.

ـ لا أريدك أن تعتني بي.. أنا لا أحبك أن...

ـ ألانني كنت غاضباً منك بعد الظهر.

ـ بسبب كل شيء. اذهب واتركني لوحدي!

ـ ما كان يجب أ ن تتلصصي...

ـ لا أريد أن تعلّمني كيف أتصرف.. ليس أنت. لقد أردت أن أعرف شيئاً.

ـ وهل عرفت ما تريدين معرفته؟

ـ لقد قلت لك.. لم أسمع شيئاً. فقط أنك كنت تتجادل مع خوليو.

ـ لمن نكن نصرخ.

ـ لم تكن بحاجة للصراخ.. أعلم هذا من لهجتك.

ـ ولكن ليس من الكلمات.

ـ لا.. ولكن لما أنت مهتم بما سمعته؟ كان الحديث عني.. أليس كذلك؟ كنتما تتجادلان حولي. ولي الحق أن أعرف ماذا كان يجري.

ـ اهدأي!

كان صوتها يرتفع، وما قاله زاد من حدتها أكثر.

ـ لا.. لن أهدأ.. اذهب عني! اترك غرفتي. سأعتني بنفسي،

ولكن قل لي أولاً.. هل طلب منك خوليو شيئاً؟

ـ لن أقف في الظلام أتحدث مع شخص لا أراه. دعيني أخرج تلك الفراشة...

ـ لا.. قل لي أولاً.. قل لي الآن.

وأمسكت بذراعه بقوة. وأحست بالغضب، ولم يحاول التخلص من قبضتها. كان الامر سهلاً عليها في الظلام، ولا تستطيع تفسير لماذا، ولكنها تستطيع أن تسأل ما تشاء الآن، في هذا الصمت، على الرغم من أن الجو مكهرب، وعندما تضاء الغرفة، ربما ستتلاشى قوتها، ويجب عليها أن تعرف.

ـ الأفضل أن تجلسي في فراشك...

ـ لا! لن أتحرك من هنا قبل أن تقول لي.

ـ لا تكوني حمقاء! أنت لست قوية...

ـ أنا قوية بما يكفي لأقف هنا.

ـ إذا.. انزعي أظافرك من ذراعي.

وأبعدت ميلا يدها عنه، وانتظرت رده. ولكنه سار نحو الباب ولحقت به، ووقفت في وجهه تسد الطريق عليه:

ـ كيف تجرؤ على هذا! كيف تجرؤ!

ـ كنت سأذهب لأحضر لنا شراباً! اسمعي ميلا.. لا تأمريني ماذا سأفعل.. لا أحد يفعل هذا معي...

ـ ما عدا آر. أس.

ـ لماذا لا نبقيه بعيداً عن الموضوع.

ـ وكيف أستطيع؟ إنها غلطته...

ـ أوكي.. هذا يكفي.. استمعي إليّ الآن للحظة.. اذهبي واجلسي في فراشك، وابقي هناك، وسأعود وأبعد الفراشة، ثم سأضيء هذا النور اللعين، وسنتحدث.

ـ سنتحدث الآن. مما أنت خائف؟ الظلام؟

ـ لو كنت خائفاً لما وقفت هنا مع طفلة سيئة الطباع مثلك تحاول التأمر عليّ..

وصفعته على وجهه بأقصى ما تستطيعه من قوة. وسمعت تنفسه الحاد. وفي اللحظة التالية رفعها من خصرها ووضعها على السرير، ووقف طيفه المعتم الأسود أمامها، ذراعاه على خصره، هذا كل ما استطاعت رؤيته، وصوته بدأ قاسياً كالصخر.

ـ حركة أخرى منك، و...

ووقفت، وأطلقت لكمة قوية باتجاه ذقنه، ولم تحسّ إلا وقد التفت حول نفسها وقد أمسكها بقوة إلى صدره، وأصبحت دون حراك تماماً. ذراعاه كطوق حديدي، وشيء واحد مؤكد، لن تنفعها أية مقاومة لتحرر نفسها حتى يختار هو أن يتركها!

ـ أنت تطلبين الضرب على قفاك، وستحصلين على ما تريدين.

ـ لا!...

ودفعت برأسها إلى الخلف، وسمعته يصطدم بذقنه، وفي اللحظة التالية كانت ملقاة على بطنها فوق ساقيه، ولوحت بذراعيها، وتلوت وقاومت، ثم:

ـ اخ.. اوه.. او...

ثلاث مرات ارتفعت فيها ذراعه ونزلت، وكل مرة كانت تصرخ، ثم دفعها بعيداً ووقف، وأوقفها على قدميها.

ـ أنت وحش!

وامتلأت عينيها بدموع الغضب والإذلال، ولكنها لم تحاول أن تضربه ثانية.

ـ لو حاولت ضربي ثانية، هذا ما ستحصلين عليه... ضرب جيد على قفاك. ولن أقول إن ضربك آلمني أكثر من ضربي لك، لأن هذا

ليس صحيحاً. وآمل أن تفكري بي عندما ستجلسين. والآن سأذهب لأحضر شراباً لنا، ولا تحاولي إيقافي.. ثم أعود لنتحدث.

وتوجه نحو الباب وخرج.. وجلست على السرير.

هكذا إذاً.. لقد فعلتها ثانية، كما كل مرة.. كل مرة... والأمر الفظيع أنها لا تعرف لماذا. وشعرت بالألم.. والندم.. أخلاقيا وجسدياً، ولكن غضبها تلاشى.. وشعرت فجأة بأنها فعلاً طائشة.

ساد الصمت. ثم وقع أقدام. دخل جون. عبر نحو النافذة. وضع الكوبين على حافتها، مديده، أمسك بالفراشة بين يديه وأخرجها من النافذة وأغلقها. وسار نحو ميلا، أضاء النور ووقف يتطلع إليها.

ـ ألا زلت مليئة بحب القتال.

لم تردّ عليه، وعاد والتقط كوبي العصير، وأعطاها واحداً «اشربي» وحدّقت بالشراب الذهبي اللون في الكوب، ورفعته إلى فمها وشربته كله. وبكل غباء.. وبينما أخذت انفاسها تتثاقل سمعت صوته عن بعد يقول «ليس كله دفعة واحدة!» ولكن بعد فوات الأوان، وتراقصت الغرفة من حولها، وسبحت عينيها، وأحست وكأن شخصاً يرمي الصخور على رأسها.

ـ هذا.. ما... إنه... ماذا.. هذا؟

ـ إنه مشروب مكسيكي ومن المفترض أن يرتشف ببطء.

ـ شكراً.. شكراً لأنك قلت لي.

وتطلعت إلى الأعلى، الغرفة امتلأت بالأضواء الذهبية، وبدا جون كطيف مبهم وصرخت:

ـ وي ي.. هل لي بآخر؟

ـ لا.. لن تحصلي على واحد آخر. الافضل أن أحضر لك القهوة.

ـ لا تزعج.. نفسك...

وعندما عاد بعد ثلاث دقائق كانت تقريباً نائمة.

عندما أفاقت في الصباح، كان رأسها يؤلمها. وجلست في الفراش، وشعرت وكأن هناك ضرب بالمطرقة، أو ضرب طبول كلها تؤلف فرقة موسيقية في رأسها، ووضعت رأسها بين يديها، وتأوهت. ولا بد أن جوليتا كانت قريبة فقد دخلت بسرعة، ونظرت إليها.

ـ أوه يا عزيزتي.. هل أنت مصابة بصداع؟

ـ أجل..

ـ سنيور جون أخبرني.. أنا آسفة.. لقد كنت في الاحتفال مع سنيور.. مع خوليو. مسكينة يا ميلا! سأحضر لك شيئاً للصداع. أرجوك استلقي واغمضي عينيك. هل أغلق الستائر؟

ـ أجل.. أرجوك يا جوليتا.

واستلقت ثانية، وأخذت تتذكر ما جرى في الليلة الماضية، كان جون على وشك أن يقول لها شيئاً، وحدث كل شيء بسبب فراشة. وقطبت، وبدأت الافكار تتركز، ثم تذكرت، لقد دخل وهي تحاول إنقاذ الفراشة، وكادت أن تقع، ثم.. ثم تشاجرا ثانية. ثم شربت شيئاً. وبعدها قهوة مرة. ولم يعد أي شيء واضحاً. ما عدا الغطاء فوق رأسها وصوت جون يقول: «نامي جيداً» ثم الصمت.

وأحست بيد جوليتا الباردة على جبهتها. ووجهها المبتسم ينظر اليها:

ـ خذي، اشربي هذا! ستشعرين بتحسن فوراً. هل ترغبين في تناول الافطار؟

ـ لا.. شكراً.

ـ عندما تشربين هذا الكوب، سأحممك، واليوم أظن أنك سترتدين ثيابك. أتحبين هذا؟

ـ أرتدي ثيابي؟.. هل أستطيع؟

ـ أجل.. سيأتي الدكتور لرؤيتك.. ولكنني قلت له إنك أحسن حالاً. ما عدا رأسك المسكين.

ـ ولكن أين الدكتور الآن؟ ظننت أنه مقيم هنا؟

ـ لا.. إنه مشغول في المستشفى، لقد بقي ليطمئن عليك فقط وعاد إلى مدينة المكسيك بالطائرة.

ـ بالطائرة.. كيف؟

ـ بالهليوكوبتر.. سنيور.. خوليو يمتلك واحدة خاصة.

ولاحظت ميلا شيئاً، مرتين ترددت فيهما جوليتا عند ذكر اسم خوليو، وكأنها ستقول شيئاً آخر. والتقت عيناها بعيني جوليتا:

ـ لقد دعوتيه بالسنيور خوليو.. ما اسم عائلته؟

ـ اسم عائلته؟ لم افهم ما تعنين.

ـ بل تعرفين.. اسمه الثاني.

ـ أوه.. لا أعرف. أعرفه فقط خوليو. والدكتور صديق له، وأحضرني معه من مدينة المكسيك. وسأبقى بعيدة عن المستشفى طالما أنت بحاجة لي.

وابتسمت لميلا ابتسامة مطمئنة، ولكنها بشكل غريب لم تطمئنها. لأنها تشعر بأن شيئاً ما هنا ليس سوياً. وقالت جوليتا:

ـ سأحضر بعض المناشف النظيفة، ثم سأساعدك على الاستحمام.

ما الأمر؟.. لماذا يتملكها هذا الشعور؟ وقررت أن تترك الأمر دون تفكير في الوقت الحاضر. وعادت جوليتا لتقطع تفكيرها.

ـ تعالي.. ستشعرين بشكل أفضل بعد الحمام.

وشعرت بعد الحمام وارتداء ملابسها فعلاً بأنها أفضل. وسألت جوليتا:

ـ هل أستطيع الجلوس في الخارج؟

ـ أجل.. سيأتي سنيور جون مع الكرسي المتحرك حالاً. ولدينا مجلات جميلة لك. وتستطيعين الجلوس في الظل والقراءة.

ـ والسباحة.؟ هل أستطيع السباحة؟

ـ ولمَ لا؟.. ربما لفترة قصيرة. اتحبين هذا؟

ـ أجل..

ـ اتعلمين؟ سأعود قريباً إلى عملي. فلن تحتاجي إليّ طويلاً.

ـ لقد كنت لطيفة معي يا جوليتا. إنك ممرضة ممتازة.

ـ غراتسياس، لقد تمتعت بإقامتي معك. وسأكون آسفة لتركي هنا. إنه مكان جميل.. ألا توافقين معي؟

ـ إنها فعلاً مزرعة جميلة.. جوليتا، أتعلمين لماذا أنا هنا؟ الم يخبرك أحد؟

ـ ستقيمين في أميركا، أليس كذلك؟

ـ لا أعرف.. لم أقصد هذا بالضبط.. أعني هل قال لك أحد من أنا، ولماذا أنا مع جون؟

ـ أجل.. لقد قيل لي إنك كنت تعيشين في جزيرة، في فندق، وقد أرسل.. أحدهم.. سنيور كاليهن لإحضارك...

ـ أحدهم أجل.. ولكن هل تعلمين من هو أحدهم هذا؟

ـ قريب لك.. أجل جدك...

ودخل جون، ولم يكن معه كرسي.. هل كان يصغي؟ ألا يريدني أن أتحدث مع جوليتا كثيراً؟

ـ هل ميلا جاهزة يا جوليتا...

ـ أجل سنيور.

ـ رائع.. سأعتني بها الآن. أظن أن ماريا تحضر لك القهوة.

ـ شكراً.

وابتسمت لميلا وخرجت، وحدقت ميلا بجون بقساوة:

ـ ستتولى الأمر؟ أليس كذلك؟

ـ أجل..

ـ وأين الكرسي المتحرك؟

ـ أنا واثق أنك قوية كفاية لتسيري. ألست كذلك؟

ـ قل لي.. هل اشتريتم الكرسي ام استأجرتموها لأستعملها.

ـ وما الفرق؟

ـ أحاول أن أحدد الأشياء في رأسي، ولكن يبدو أن الجميع يصعّبون الأمر عليّ، مثل الآن. هل تتسلل دائماً في الممرات تستمع لاحاديث الناس؟

ـ كنت قادماً لأخذك.

ـ أين خوليو؟

ـ لقد خرج باكراً هذا الصباح في عمل. ويرسل لك اعتذاره، ويقول إن عليك أن تتصرفي هنا وكأنك في بيتك...

ـ ومت.. متى سيعود؟

ـ بعد يومين. من الصعب القول. لماذا؟

ـ أنا أحبه.

ـ ولا تحبيني؟

واغمضت عينيها بغضب.. فقال:

ـ إنه سؤال سخيف.. بالطبع لا تحبيني!

ـ هل حدثك عني يوم أمس؟

ـ أجل..

ـ و.. وماذا قلت؟

ـ ستبقين هنا لفترة.

ـ خوليو.. هل ذهب.. لرؤية جدي؟

ـ لقد سألت ما فيه الكفاية ليوم واحد.

ـ ألن تسأل هكذا لو كنت مكاني؟
ـ لا . .
ـ أنت كاذب! لا يمكنك أن تعترف بشيء . . .
ـ لقد اعتنيت بك، وأخرجتك من حياة تكرهينها، لماذا لا تقبلين بالأشياء كما هي؟
ـ لأن هناك الكثير من الغموض لا أحبه! وأنت تعلم، مع أنك لا تعترف.
ـ غموض . . بأية طريقة؟
ـ أنت تعلم جيداً ما هو؟ ما هو! قل لي الآن يا جون.
ـ لا أستطيع! هكذا بكل بساطة. أنا آسف يا ميلا ولكنني . . .
ـ أكرهك! اذهب عني . . دعني لوحدي.
ووضعت وجهها بين يديها وبدأت تبكي.
ـ أوه ميلا . . لا تفعلي هذا يا حلوتي . .
وأحست بثقله إلى جانبها، ثم التفت ذراعاه حولها، وشعرت بأنها أضعف من أن تقاوم، فاستدارت اليه ولجأت إلى ذراعيه. كان الشعور مريحاً لها. ونسيت كل ما فكرت به من حلول، من تصميم على عدم تركه يقترب منها. كل ما أحسّت به هو دفء جسمه بقربها. وضربات قلبه على وجهها، رقة ذراعيه وهو يحتضنها. ورفعت وجهها المليء بالدموع، وما حدث بعدها كان محتماً، مثل الليل يتبع النهار.
كانا وكأنهما شخص واحد، خارج الزمن، العناق استحوذ على كل كيانها. وعرفت ما كان يجب أن تعرفه من قبل، إنها تحبه. لقد أحبت هذا الرجل الأسمر الغامض القوي، حباً لم تعرف مثله من قبل. وهمست له «أوه يا جون» وأحاط بها بقوة أكثر.
وشعرت وكأنها ستموت من السعادة.

☆ ☆ ☆

٩ ـ الاكتشاف

وفجأة، وكما حدث على المركب، انتهى كل شيء. وجذب جون نفسه مبتعداً. وهمس قائلاً:
ـ يا إلهي! . . أنا آسف . . .
ـ لا تقل هذا . .
وكطفل يسعى إلى الراحة، أسرعت خلفه، ولكنه كان قد استعاد وعيه. فتجهم وجهه، واسوّدت عيناه لتصبحا مخيفتان.
ـ يجب أن نخرج . . ألا تعلمين . . .
ـ أعلم . . ماذا؟
ـ ماذا تفعلين؟
وعاد الغريب القاسي الوجه ثانية. واستدار عنها وذهب نحو النافذة. وكشف الستائر. ووقفت ميلا تنظر إليه وهي ترتجف، هذه المرة مختلفة نوعاً ما . . . وإلا لكان لها نفس تأثير الإذلال التي لسابقتها. هذه المرة عرفت بأنها تحبه، مع أن هذا مؤلم لها أكثر. آه، كم هو مؤلم! وكأنه ألم جسدي، لا شفاء منه.
وسارت نحو الباب، كل ما فكرت به أن تبتعد عنه. ليست بحاجة له . . ولا لأحد. وسارت في الممر، وسمعت خطواته من خلفها فاستمرت في سيرها وكأنه غير موجود. ولمس جون كتفها.

ـ انتظري . . .

هذا منتهى قدرتها على التحمل . . . واستدارت إليه :

ـ ابتعد عني ! لا تلمسني ! وأعني ما أقول . أستطيع السير بمفردي . لا أريد مساعدتك !

ولمست الزر في الجدار وفتح الباب وخرجت الى الشمس اللاذعة . وذهبت وجلست على المقعد واستلقت إلى الخلف . واغمضت عينيها غير راغبة في أن تفتحهما ثانية ، ولا أن تفكر ، إذ لا تجرؤ أن تفكر .

وتذكرت كلمات جون ، ستبقى هنا لفترة ، فترة؟ كم ستكون؟ أسبوع؟ أسبوعان . . ؟ لم يقل لها شيئاً . . لا أحد يقول لها شيئاً . وأين خوليو؟ لو أنها لم تكن ضعيفة! لم تعد متأكدة من تكون . واعادها صوت جوليتا الرقيق إلى واقعها .

ـ ميلا . . . ألن تسبحي؟ لقد أحضرت لك ثوب سباحة ، تستطيعين لبسه في الغرفة وراءك .

ـ شكراً لك ، ألن تسبحي معي؟

فضحكت جوليتا «إذا رغبتي في هذا . ولكنني لا أعرف السباحة كثيراً» .

ـ سأعلمك .

ـ إذاً سأحضر ثوب سباحة لي . . .

وخلعت ثيابها في الغرفة ، وارتدت البيكيني الأبيض الذي أتت به جوليتا . لم تكن قد ارتدت مثله من قبل ، ونظرت إلى جسدها الرائع في المرآة :

ـ أبدو رائعة !

واستدارت لتنظر الى جسدها جانباً ، وشعرت بثقتها بنفسها تعود . وخرجت ، ثم غطست في الماء ، وهي تزيح شعرها إلى الخلف . . .

اه كم هذا رائع ! ولوّحت لها جوليتا وهي تخرج من المنزل .

ـ سأكون معك بعد لحظات .

وابتسمت لها ميلا ، ثم استلقت فوق الماء على ظهرها ، تنتظر وصول جوليتا . وسمعت صوت ارتطام جسد في الماء وغمرها الرذاذ ، والتفتت لترى الممرضة مقبلة نحوها «أوه يا عزيزتي ، أنا سباحة رديئة» .

ـ لا . . أنت لست هكذا . . هيا تعالي . . سأعلّمك السباحة . وهذا سيزيد من سرعتك في الماء . لنذهب إلى نهاية البركة . . انظري . . . .

وضربت الماء بسرعة ، تاركة جوليتا الضاحكة تتبعها . ونسيت جون . . . وكل مشاكلها . . . تقريباً .

ووقفت ميلا على حافة البركة تنتظر خروج جوليتا من الماء . وراقبتها بصمت ، وخطرت لها فكرة ، وسارت نحو الممرضة الشابة وقالت :

ـ الأفضل أن نغيّر ثيابنا .

قد يكون من الأسهل أن تتحدث معها في غرفة الملابس ، لوحدهما . هل ستتمكن ميلا أن تجعل جوليتا تفهم؟ هناك طريقة واحدة للمعرفة . وقالت لها وهما تجففان نفسيهما في الغرفة :

ـ جوليتا . . أحتاج لمساعدتك .

واتسعت عينا الفتاة بالدهشة .

ـ نعم . . قولي . . ماذا؟

ـ لا أريد البقاء هنا . ولكن ليس لديّ مال ولا مكان أذهب إليه .

ـ اوه . اوه يا ميلا . . . وكيف أستطيع مساعدتك؟

ـ بأن تطلبي من الدكتور رامون أن يأخذني معه إلى مكسيكو . . .

- ولكنه سيرفض. أعلم هذا. هو والد... وخوليو صديقان...
- ولكنني هنا فقط بسبب الحادثة! لم يكن يجب أن أكون هنا أبداً. إنه جون.. سنيور كاليهن الذي دبّر أمر المجيء إلى هنا.
- أعلم.. ولكن... أوه.. الأمر صعب كثيراً عليّ...
وبدت وكأنها على وشك البكاء. ومدت ميلا يدها ولمست ذراعها:
- ما الأمر.. اخبريني.. هناك سر يحاول الجميع إخفاءه عني... هل هو شيء مخيف...
- لا... صدقيني. إنه ليس كذلك... ولكنني... أقسمت على السرية...
- لا أستطيع تحمل الأمر. أشعر وكأنني سأجن!
وارتدت البنطلون ثم القميص، وجففت شعرها. الضغط كان يتزايد داخلها حتى أصبح مخيفاً.
- أين جون؟ سأذهب لأراه.. لا أستطيع...
- انتظري.. قبل أن تذهبي.. سأقول لك شيئاً.. الشيء الوحيد الذي أظن أنه قد يساعدك. مع أنني لا أعرف...
- هيا تابعي... ما هو؟
- على بعد بضع كيلومترات من القرية التي ذهبنا لنحضر الاحتفال فيها، يوجد مكان فيه راهبات.. ما تسمونه.. دير؟
- دير راهبات؟
- سي.. هذا هو. إنه مأوى أطفال. ميتم. أجل! هناك يمكنك اللجوء. ولكن لم يكن يجب أن أقول لك.. فقط لأنك حزينة...
- شكراً لك جوليتا. أنت لطيفة جداً. ولا تقلقي. لن أذكر هذا أمام جون. سيحضر الطبيب قريباً أليس كذلك، وسأرى جون لاحقاً.
ستجد المكان، بطريقة أو بأخرى، ستجده. لأنه الفرصة الوحيدة

للخلاص. وابتسمت للفتاة المضطربة.
بعد أن أعلن الدكتور رامون بابتسامة أنها أصبحت على ما يرام، تناولت غداءها مع جوليتا عند البركة. ثم استرخت على الكرسي بانتظار أن ترى جون. لن تثير شكوكه بأسئلتها. ستطلب منه أن يخرج بها لتتجول حول المزرعة. وكانت مستعدة للقائه عندما خرج من المنزل، وأبقت عينيها مغلقتان، ولن تدع أي شيء يفصح عما تنويه. وفتحت عينيها عندما أحست بوجوده قربها «مرحباً» وظللت وجهها بيدها من الشمس.
- هل تمتعتي بالسباحة؟
- أجل. والدكتور قال إنني على ما يرام.
- أعلم هذا.
- إذاً أستطيع القيام بنزهة.. أرجوك؟ أحب أن أرى الريف. لم أشاهد المكسيك من قبل.
- لا أرى سبباً للرفض. ولكن ليس بعد. إنه وقت الراحة الآن. وهذا يعني أن الطقس حار جداً، فيما بعد عندما يبرد الطقس، في الخامسة.
- في الخامسة. ولكن الظلام يحلّ سريعاً بعد الخامسة.
- اجل.. ولكن ليس قبل ساعة أو أكثر. وسيكون أمامنا وقت طويل. كيف تريدين الذهاب؟ في السيارة، أم على الخيل، ام بالعربة؟
- بالعربة؟
- سأرى.. سأتركك ترتاحين الآن. هل لديك كل ما تحتاجينه؟
- أجل شكراً. سأكون جاهزة عند الخامسة.
وأغلقت عينيها واستلقت، حتى الآن مر كل شيء على ما يرام. حتى الخامسة... أمامها ثلاث ساعات.

«هذه تدعى مركبة» ونظرت إلى العربة التي وعد بها جون، مربوطة إلى حصانين ينتظران بصبر، كان لها مقعد أمامي طويل مغطى بالمخمل الأزرق الغامق، ومكان آخر في المؤخرة، ومظلة قطنية سوداء فوقها، لتقي من يركبها من الشمس.

ـ أوكي.. هيا اصعدي.

ومد يده ليساعدها، فصعدت وجلست في المقعد المريح. وراقبته وهو يلتف من أمام المركبة، ويهمس شيئاً للحصانين ثم يصعد إلى مقعده، واخذ السوط وقال «هل أنت مستعدة» وأجابته «نعم» وصرخ بالجياد فانطلقت بالمركبة.

الانطباع الاولي الذي أحسته يوم نظرت إلى الصحراء المترامية دون نهاية من نافذة غرفتها، بدا الآن أقل حدة. ففي الخارج تستطيع أن ترى التلال والاشجار والعشب الممتد، كان هناك رمال.. الكثير منها. ولكن المنظر لم يكن كئيباً كما كانت تتصوره. فيه بعض الجمال، وأخذت تحدق من حولها باعجاب.

ـ أين ستأخذني.

ـ في نزهة. هذا ما طلبتيه.. أليس كذلك؟

ـ أو... أجل.. طبعاً.. ولكنني أتساءل ما إذا كنت تفكر بمكان ما.

ـ لا.. وأنت؟

ـ لا أعرف شيئاً هنا.

ـ اعتقد هذا.

ـ ولكنهم في المزرعة ذهبوا إلى احتفال في القرية، هل أنت ذاهب في ذلك الاتجاه؟

ـ أجل...

ووراء القرية دير راهبات... ولكن من المفترض أن لا تعرف عنه شيئاً، طبعاً. التصميم على الهروب من مزرعة خوليو كان يستحوذ عليها الآن. حتى ولو أنه ذهب لمقابلة آر. أس... فهذا لا يعني ضمان أنها ستكون على أحسن حال. ولماذا ستكون هناك ضمانة؟ آر. أس. رجل قاسي، مليونير. يحصل دائماً على ما يريد، وخوليو لطيف جداً وقد لا ينجح معه، وجون ليس مهتماً. الوقوع في حب رجل مثل جون كان أكبر غلطة ارتكبتها.

ونظرت أمامها. متمنية أن تظهر القرية. لم يكن هناك بيت حقيقي لها. في أي مكان، ولكن هنا، ولفترة ما، قد تجد السلام، والوقت للتفكير. إلى أن تؤمن مستقبلها، وتستطيع الارتحال.. ولكن إلى أين؟ إنها لا تعرف... وتذكرت كلام خوليو.. لدينا اليوم فقط لنعيش من أجله...

وأدركت أن جون كان يتكلم فقالت بسرعة «ماذا قلت؟».

ـ قلت إننا على وشك الوصول. لقد كنت ضائعة في أحلام اليقظة، هل قطعت عليك شيئاً؟

ـ لا شيء مهم...

ـ ستشاهدين قرية مكسيكية تقليدية، مليئة بالألوان، أعدك.

الأمر غريب، ولكنه كان يفعل ما بمقدوره ليسعدها، على الأقل العدوانية غادرته، لفترة، وصوته أصبح هادئاً. ونظرت إليه ميلا.. ماالذي جعل هذا الرجل يتغيّر؟ لقد شاهدت العديد من الطباع المتقلبة المتنافرة منه في غضون بضعة أيام. العمق، التعقيد، الغموض، كان كل هذا مجتمعاً فيه، وأكثر. ويستطيع أن يكون لطيفاً، ورقيقاً.. وأبعدت ميلا هذه الفكرة عن رأسها. إنه عدو، على كل الاحوال. ويجب أن يبقى هكذا...

النصف ملفوظة من جوليتا.. التردد.. أول نظرة لها على خوليو... هادىء ووقور يدخل غرفتها في المزرعة... وكيف أنها ظنت بأنه خادم...

ـ لا.. لا أعرف... ولكنني أحب أن أعرف.

وفي قرارة قلبها.. كانت قد عرفت.

ـ اسمه ليس خوليو.. لقد ظننتي أنه خادم، واعتقدت من طريقة ارتداء ملابسه أنه مكسيكي. إنه أميركي، وليس خوليو. إنه جدك يا ميلا...

☆ ☆ ☆

ـ هل هي هكذا؟ ألا يجلسون طوال النهار معتمرين قبعات كبيرة وهم ينامون؟

ـ وهل هذه فكرتك عن المكسيكيين؟.. قد يكون معك حق. فالجو حار جداً للعمل، في الواقع. أستطيع أن اقول إن النساء هنا يعملن أكثر من الرجال.

ـ طبعاً..

ـ وهناك نوع من عكس المثل: لا تفعل اليوم ما تستطيع تأجيله إلى الغد.

ـ في هذه الحالة لا أستطيع أن أقول إن خوليو مكسيكي تقليدي.

ـ إنه ليس كذلك.

ـ وما هو إذاً؟

ـ انه عامل نشيط. ويسافر كثيراً. ولا يعيش هنا طوال الوقت بهذا فهو لم يتأثر بالكسل العام.

جوابه لم يكن مرضياً لها، فقد توقعت جواباً يثيرها أكثر، وتنهدت.

ـ إذاً، هل كان وجوده مصادفة عندما وصلت إلى هنا؟

وساد صمت. ولم يجب جون، بل ركّز على الجياد، وبدأ يخفف من سرعتهما الى أن توقفا.

ـ ما الأمر لماذا توقفت؟

ـ أنت تعرفين.. أليس كذلك؟

ـ أعرف ماذا؟

وبدأ قلبها يضرب بشدة داخل صدرها، وصاح طير من مكان بعيد، وتلقى جواباً على صيحته، وتساءلت ما إذا كانت سيغمى عليها.

ـ أنت تعرفين من هو خوليو حقاً.

كان يتكلم بحذر وبطء، يخرج كل كلمة لتبقى معلّقة في الهواء وكأنها الصدى. وعادت ذكريات كثيرة إلى ذهن ميلا... الكلمات

١٠ ـ الخلاص

وغمرها الشعور بأنها خُدعت، حتى أحست بأنها مريضة. لم تستطع أن تتكلم. لم تستطع فعل شيء سوى الجلوس جامدة، والكلمات تطوف من حولها. وشحب وجهها، وانتظرت لتذهب الصدمة عنها وسمعت صوت جون يقول:

ـ اشربي هذا.

ولكنها دفعت الكوب عنها وهزت رأسها.

ـ لا.. لا أريد شيئاً.. خذني إلى القرية..

ـ ولكن...

ـ أرجوك خذني إلى القرية.

لم يكن لديها فكرة واضحة، ما عدا الهرب... ما عدا معرفتها أنها في القرية قد تجد من يستطيع أخذها إلى الدير. لأنها لن تعود إلى المزرعة، كلهم يعرفون الحقيقة، حتى جوليتا، التي حاولت مساعدتها، بينما أبقت السر مخفياً عنها.

ـ أنا آسف يا ميلا... ولكن كان يجب أن تعرفي، ولم أستطع تركك هكذا دون...

ـ شكراً لأنك أخبرتني. أستطيع رؤية كل شيء الآن. كم تسليتم وأنتم..

ـ لم نكن نفكر بأن الأمر مسلي أبداً.. لقد أخطأتِ بشكل طبيعي... واعتقد جدك أنها أفضل طريقة...

ـ لا حاجة بك للشرح... لقد فهمت.. أرجوك خذني إلى القرية...

ـ أظن من الأفضل أن نعود إلى المزرعة. تستطيعين هناك...

ولم تنتظر ليكمل كلامه، فقفزت من العربة إلى الأرض، وبدأت تسير وسمعت تحركه، ثم أصبح إلى جانبها.

ـ لا تستطيعين السير إلى هناك! إنها تبعد ميلاً. ولا يزال الطقس حاراً...

ـ إذاً خذني!

ولم تنظر إليه، بل وقفت هناك، آملة أن لا يلمسها، وأن لا يستخدم القوة، إذ كيف ستقدر على مقاومته؟ وأحست أنه ينظر إليها، وأحست ايضاً أنه لن يلمسها خوفاً من النتائج، وكأنه كان يعلم مدى يأسها. وقال أخيراً بهدوء:

ـ حسن جداً.. عودي إلى العربة.. سآخذك.

ـ شكراً...

وعادت إلى العربة، وجلست تنظر إلى الأمام، وصاح بالجياد فانطلقت المركبة. ووصلا القرية صامتين، وأوقف العربة قرب شجرة كبيرة، ودار لمساعدتها على النزول، ولكنها لم تنتظر، ونظرت إلى آخر الطريق حيث يقف مبنى أبيض له قبة جرس، وعلمت أن هذا ما كانت تبحث عنه، وبدأت السير نحوه.. وأمسك جون بذراعها.

ـ انتظري.. إلى أين..

وجذبت ذراعها منه.

ـ أريد الذهاب إلى الكنيسة.. اريد مكاناً أستطيع التفكير داخله. وتستطيع أنت أن تفعل ما تشاء...

كانت الأبنية من حولهما بيضاء غير مستقيمة الجدران. مبنية بالطين. وجلس الرجال عند أبوابها يراقبونهما، نائمين ومن الواضح أنهم غير مهتمين بهذين الغريبين، وبضعة أطفال كانوا يلعبون في الوحل قرب نافورة مياه في وسط الشارع.

وكان ضوء النهار قد بدأ يختفي.. وظهر من عدة نوافذ صغيرة بعض الضوء، واستطاعت أن تسمع بعض الموسيقى.. غيثار يعزف بلطف ورقّة. ولحق بها جون، غير غاضب، ولكن قلق فقط:

ـ انتظري.. أنت بحاجة لشيء تشربينه أولاً.. لنذهب إلى مكان ما ونتحدث.

ـ ليس هناك شيء نتحدث عنه.

والتفتت لتنظر إليه، وفي الظلال التي بدأت تتجمع عند المغيب، شاهدته وكأنه غريب، وجه مظلل وداكن..

ـ هل تفهمني؟ لا شيء. لقد قلنا كل شيء.

وشعرت وكأنها صغيرة دون دفاع، ومع ذلك قوة داخلية كانت تدفعها إلى الهرب منه. وشعور متزايد بأنها كانت مخدوعة طوال الوقت. لماذا ضحكوا عليها؟ أهكذا أيضاً كان ينظر إليها رالف ولينا وماتياس؟ شخص يجب أن يبقى جاهلاً؟

لقد أصبح كل شيء عند نهايته الآن! كل شيء.. لقد انتهت منهم جميعاً، ومن جون، ومن آر. أس... وللأسف من خوليو... الرجل الوحيد الذي ظنت أنها تستطيع الثقة به. الآن فقط عرفت أنها لا تستطيع الثقة به. واستدارت مبتعدة عن جون وتابعت سيرها.

وأخذت الكنيسة تقترب... ثم فجأة.. فتح الباب وكأنما بإشارة خفية، وانبعث الضوء من الداخل على السلالم. وسارت بسرعة أكبر، ووصلت الدرجة الأولى، وصعدت راكضة، ثم عبر الباب الذي يعلوه

قوس، وكان هناك في الداخل رجل ينتظر، وكأنما ينتظرها...

لطيف، سمين، مسن، شعره أبيض. وابتسم الكاهن لها، وأخرجت ميلا تنهيدة عميقة.

ـ أبي... هل تتكلم الإنكليزية؟

ـ أجل.! ادخلي يا طفلتي...

وتطلعت من حولها وهو يبدأ في اغلاق الباب الخشبي الكبير. ووقف جون على بعد خطوات، يراقب. وقال الكاهن:

ـ ورفيقك.. هل يرغب...

ـ لا... أرجوك.. هل أستطيع أن أكلمك على انفراد.

ـ طبعاً أنا هنا للمساعدة. اتبعيني أرجوك.

واستدار، ثم سار نحو المذبح. وتبعته ميلا.. تنظر من حولها، تراقب بساطة البناء، الجدران البسيطة البيضاء، المقاعد الخشبية، وارتاح قلبها.. إنها في أمان الآن، وهي تعرف ذلك.

جلسا في غرفة فيها طاولة وبضع كراسي. وصب الكاهن كوب ماء لميلا وابتسم لها بلطف:

ـ اخبريني... بأية طريقة أستطيع مساعدتك؟

انكليزيته في الواقع كانت ممتازة، فيها لكنة أميركية أقوى من اللكنة المكسيكية، وتراجع في كرسيه وأمال رأسه إلى الجانب، ولم يكن هناك سوى طريقة واحدة لتحكي ما حدث سوى أن تبدأ منذ البداية وهكذا فعلت...

وعندما انتهت، أطلق الكاهن تنهيدة طويلة وقال:

ـ آه.. يا ابنتي... أفهم كيف تشعرين، وتظنين أنني إذا أخذتك إلى الميتم. ستكونين سعيدة هناك؟

ـ سأكون في أمان، وسأكون قادرة على التفكير، بوضوح. وهذا ما لا أستطيعه الآن. هل تفهمني؟

ـ أجل.. أفهمك.. ولكن إذا ساعدتك، وسأفعل، يجب أن تقولي لهؤلاء الناس أين أنت ذاهبة ولماذا... لا يمكنك الاختفاء هكذا. الرجل في الخارج.. الأميركي جون.. إنه ما زال هنا، لندعه يدخل..

ـ لا أريد.. رؤيته ثانية.. أبداً.

ـ أنت خائفة منه؟

ـ ليس.. ليس الآن..

ـ وهل كنت خائفة منه من قبل؟

ـ لم يكن الأمر كذلك.. الأمر فقط أنني لم أقابل رجلاً من نوعه من قبل.. إنه.. قوي... يحصل دائماً على ما يريد و...

توقفت.. لم ترد أن تعطي هذا الكاهن الودود فكرة سيئة حول جون. وأطرق الكاهن رأسه وقال بلهجة مرحة:

ـ طبعاً إنه اميركي تقليدي! سأقول له أن يدخل.. ابقي هنا.

ووقف، وحدّق بميلا ثم قال:

ـ اسمي الأب غونسي، وأنا نصف ايرلندي، ونصف أميركي. ولهذا ترين يا ابنتي أنني أعرف ما أتحدث عنه.. وسأكون قادراً على التعامل معه.

وانتظرت ميلا، وقد جفّ فمها، لم يكن لديها أية فكرة عما سيحصل الآن. لم تستطع الجلوس، أعصابها تلفت، جسدها توتر، فنهضت على قدميها، واقتربت ببطء من الباب. ونظرت إلى الخارج عبر شق على طول جدار الكنيسة، ورأت الرجلان يتحدثان عند البوابة، وجون العملاق، يقف طويلاً أعلى من الجسد الصغير المستدير للأب غونسي، وكلاهما يتحدث، لا يتجادلان، فقط يتحدثان.

ثم تحركا.. وسارا نحوها. وتراجعت ميلا وجلست ثانية. وحاولت

أن تتنفس بهدوء، وأن توقف قلبها عن الخفقان بجنون ولكن عبثاً. ونظرت إلى جون وهو يدخل، تنتظر انفجار غضبه، ولكن لم يحدث شيء.. عيناه كانتا معتمتان وهو يتطلع إليها، معتمتان، وغريبتان، ما الأمر؟ وقال لها:

ـ إذاً أنت لست عائدة إلى المزرعة؟

ـ لا..

لماذا لا يجادلها..؟ لم تكن تتصور أن واقع أنه في الكنيسة سيمنعه من العراك. ولكن يبدو أن الأمر كذلك. وقال الأب غونسي «اجلس يا بني».

ـ لا.. شكراً يا أبتي.. سأقف.

وغمر ميلا شعور بالارتباك، لقد توقعت أي شيء ما عدا هذا.. هذا القبول الهادىء بالواقع.. وبما يحدث. لا يمكن له أن يستسلم هكذا بكل خضوع.. أيمكن هذا؟

ـ فنجان قهوة سيد كاليهن؟

ـ أجل.. أرجوك.

ووقف جون يراقب ميلا من خلف الطاولة بينما ذهب الكاهن الصغير الجسم ليحضر له القهوة.. كان يبدو كالغريب.. والأمر سهل.. سهل جداً.. وانفجرت قائلة:

ـ ظننتك ستكون غاضباً!.

ـ هل ظننت هذا؟ أنا لا أضيع وقتي بالغضب على أشياء لا أستطيع فعل شيء حولها، وما عدا أن أجرك من هنا بالقوة، لا يبدو أن هناك شيئاً أقدر أن أفعله.. ستبقين في الميتم.. ثم ماذا؟

ـ لا أعرف... سيعطيني هذا وقتاً للتفكير.

ـ ربما يكون هذا أفضل شيء.. سأذهب وأجعل جوليتا توضب لك ثيابك.. هل لي بكلمة معك يا أبتي.؟ لوحدنا.

ـ طبعاً.. تفضل.

ـ الوداع يا ميلا.

واستدار وخرج، وأطبقت قبضتاها، آملة أن لا تبكي. هكذا تم الأمر إذاً.. بكل بساطة.. الوداع يا ميلا.. وخرج. ولكن هذا ما أرادته هي.. أليس كذلك؟.. إذاً.. لماذا تشعر وكأنها مدمرة بالكامل؟ ولماذا هذا الألم العميق بداخلها.. والشعور بخسارة لا تعوض؟

وسمعت أصواتهما وهما يبتعدان، وبقيت جالسة حيث هي، لقد سعت للخلاص منذ فترة طويلة، وها هي الآن حرة. ولكنها فجأة لم تعد متأكدة مما تريده فعلاً.

واستلقت ميلا في سريرها الضيق في الغرفة الصغيرة في الميتم، ونظرت إلى أنوار القمر المربعة التي تنعكس عبر النوافذ المربعة، على السقف. كل شيء هادىء، وهي تعبة، ولكنها لا تستطيع النوم. العديد من الصور ملأت ذهنها، أطياف ملونة براقة، فصول من أحداث حصلت منذ خروج جون من الكنيسة، عودة الكاهن بعد دقائق طويلة فيما بعد، وجهه اللطيف.. اهتمامه.. إيصالها بالسيارة الى الميتم الذي يبعد عدة أميال عن القرية.. وحولها.. استقبالها دون دهشة، على يد راهبتين هادئتي الوجه. وحفنة من الأطفال الحفاة. العشاء البسيط في غرفة طعام فارغة. ثم إيصالها إلى هذه الغرفة الصغيرة.

الراهبة التي أدخلت لها الطعام، أوصلتها إلى غرفتها، وابتسمت لها قائلة «لقد أتيتي استجابة لصلواتنا، فالأخت فرانسواز مريضة منذ أيام وستبقى بعيدة لفترة. لذا اعتبري نفسك في بيتك. كل ما هنا ستشاركينا به.. أنا الأخت مادونا».

ـ هل أنت اسكوتلندية؟

ـ أجل.. من غلاسكو. ستجدين هنا أخوات من جميع أنحاء العالم. وضحكت، كانت صغيرة السن عيناها زرقاوان ووجهها جميل وتابعت:

ـ لا تندهشي يا ميلا، هذا هو واقعنا، نحن من الإرساليات وهنا في المكسيك هناك الكثير من العمل، كثير من الفقر، العديد من الايتام، وسيكون أمامك عمل كثير وأنت هنا...

ـ هذا جيد.. فأنا أحب العمل شكراً لك لإيصالك لي إلى غرفتي.

ـ نحن لا نتخلى عن أحد.. اهلاً بك هنا.

وها هي الآن هنا لوحدها، وأخذت تفكر بكل شيء.. لن تكون الحياة هنا مثالية. وهي تعرف هذا، ولكن ربما ستجد الوقت أمامها لتفكر بجون وآر. أس. وغلبها التعب، فنامت.

* * *

بعد الإفطار في الصباح التالي، تجولت ميلا برفقة الأخت مادونا في أرجاء الميتم، رافقتهم في الجولة عدة أطفال. وأمسك طفل بيد ميلا ونظر إليها بعينيه البنيتين فقالت الأخت: «هذا روبرتو، عمره ثلاث سنوات، وليس له أحد في الدنيا، أظن أنه اصبح لديك صديق». ونظرت إليه ميلا فمد يديه لها إشارة بأنه راغب في ان تحمله، فحملته ميلا بين ذراعيها ووضع يديه الصغيرتين حول عنقها وضحك فتنهدت الأخت مادونا وقالت «آه يا عزيزتي، هل عرفت ماذا فعلتي الآن؟» وسألتها ميلا «ماذا؟» فقالت «سيتبعك الآن في كل مكان.. حتى عندما تعملين. يا للمسكين!».

ـ ليس لديّ مانع.. من الممكن أن يساعدني.. ألن تفعل يا روبرتو؟

ولم يكن وزنه ثقيلاً، فحملته طوال تجوالها، تشاهد الأبنية المنخفضة المختلفة: المدرسة، المعبد، غرفة الطعام، ثم فيما بعد، أماكن النوم. وراء كل هذا حدائق معتنى بها عناية فائقة مليئة بالخضراوات، وعدة راهبات منحنيات يقمن بالسقاية، والتعشيب، يساعدهن الأولاد الأكبر سناً، بعضهم واقفون قرب البئر يسحبون المياه منه، وبعضهم يحمل الأعشاب الضارة في عربات صغيرة. الجو كله كان جو عمل، ومع ذلك مرح.. وتعاوني. وقابلت عدة راهبات، ولم تعد مندهشة بالهدوء الذي استقبلت به، فقد كانت وكأنها تنتمي إلى هذا المكان، وكأنهن كن يتوقعن وصولها.

وعندما ذكرت أنها تحب الطبخ ضحكت الأخت مادونا وقالت:

ـ طبعاً.. نحن نعرف ذلك، فواجبات الأخت فرانسواز كانت في تحضير الطعام للأطفال. جيد.. يمكنك استلام مهمتها.

كانت رائحة الطعام قد بدأت تنتشر في المطبخ عندما تقدمت ميلا للاخوات، جانيت وفرانسيز ولوسيا وانيثا. ووجدت صعوبة في تذكر جميع اسماءهن، وابتسمت وحيتهن، ورددن عليها التحية مرحبين بها. وقالت لها الأخت مادونا:

ـ تعالي، سنعطي الأولاد الكبار عصير البرتقال، ثم نحضر قاعة الطعام للغداء. بعد الظهر ستجري الخدمة الدينية في الكنيسة، إنه يوم مقدس. هنا في المكسيك ستجدين أن كل يوم مقدس تقريباً. ولكنك لست مضطرة لحضور القداس، فأنت ضيفة هنا.

ـ من المسؤولة هنا؟

ـ الأم الرئيسة الآن في مدينة المكسيك، ولكنها ستعود قريباً. إنها لطيفة وستحبينها.. إنها من ليفربول بانكلترا.

ـ ولماذا هي في مدينة المكسيك؟ أم أن الأمر خاص؟

ـ إنها تجمع التبرعات للدير. هناك العديد من رجال الأعمال يهبون المال لنا.

وهكذا، كانت بداية يوم مليء بالعمل. لم يهدأ إلا بعد أن آوى الأطفال بسلام، بما فيهم روبرتو.. إلى الفراش عند السابعة مساء. وجلست ميلا في غرفة واسعة مهوية، ونظرت إلى الراهبات من حولها. معظمهن كن صغيرات السن، وبينهن بضعة مسنات، وكن يجلسن ويتكلمن بهدوء فيما بينهن. لقد رحبّن بها، دون أن يسألنها شيئاً. وكأنهن ينتظرنها من وقت طويل. والجو كان مريحاً وكأنه بلسم لروح ميلا المجروحة. وللمرة الأولى منذ سنوات طويلة لم تصدر اليها الأوامر. لقد قامت بكل مهمتها هذا اليوم. بملء إرادتها، ومع ذلك فقد أحست بأنها لو جلست بكسل طوال الوقت لما انتقدها احد.

وها هي الآن تعبة، إنها نتيجة صحية لعمل متقن، وتقدمت الأخت مادونا إلى ميلا وابتسمت قائلة:

ـ لِمَ لا تنامين باكراً، لقد تعبت بعملك، وصحتك ليست جيدة، أرجوك لا ترهقي نفسك بالعمل.

ـ اعتقد أنني سأفعل ما قلتيه. إذا لم يمانع أحد؟

ـ لن يمانع أحد.. سنذهب لنصلي بعد وقت قصير. هل أحضر لك شيئاً تشربينه فيما بعد؟

ـ ولكنني لا أريد إزعاجك..

ـ أؤكد لك أن لا إزعاج أبداً. اذهبي الآن. سأراك فيما بعد.

عندما قرع الباب فيما بعد ظنت أنها الأخت مادونا، فقالت: «ادخلي» ولكن من دخل كان جوليتا. فقفزت ميلا من السرير وصرخت «جوليتا!».

ـ مرحباً ميلا...

وعانقتا بعضهما كأصدقاء قدامى، ثم أدخلت جوليتا حقيبة

الملابس التي تركتها خارج الباب.

ـ لقد جلبت لك ملابسك.

ـ لقد نسيت...

ـ كنت آتية قبل الآن، ولكن السنيور جون قال أن أنتظر حتى هذا المساء... هل أنت سعيدة هنا؟

ـ أجل.. فقد انشغلت بالمساعدة مع الأطفال، ولكنني استمتعت.

ـ جيد... هل لي أن أجلس؟

ـ طبعاً.. كيف وجدتي غرفتي.؟ ومن أتى بك إلى هنا؟

ـ لقد أرشدتني إحدى الراهبات، وأتى بي زوج ماريا بالسيارة.

وحاولت ميلا إخفاء أي تعبير يظهر عليها. بالطبع لن يحضر جون إلى هنا.. لقد قال، وداعاً، لها في اليوم السابق وهو يخرج من الكنيسة وهذا بالضبط ما عناه.

ـ أوه، ألا يزال ينتظرك؟

ـ أجل خارج أبواب الدير..

ونظرت الفتاتان إلى بعضهما ثم عادت جوليتا للكلام.

ـ سأذهب إلى مدينة المكسيك غداً. لقد انتهى عملي بعد أن.. ذهبتي.. وأنا آسفة لهذه النهاية.

ـ أرجوك لا تأسفي.. لقد كنت رائعة معي.. ولكنني لم استطع البقاء، ليس بعدما عرفت.. لقد كنت تعرفين طوال الوقت أليس كذلك يا جوليتا؟ كنت تعرفين من هو خوليو؟

ـ أجل... كنت أعرف، ولكنني لم أستطع القول. ميلا، هناك شيء يقلقني. لو لم.. أقل لك.. عن هذا المكان، هل كنت بقيت في المزرعة؟

ـ لا! لكنت هربت، إلى أي مكان.. لا أستطيع...

ـ الحمد لله! لقد كنت قلقة جداً. لقد كنت أخشى أن اكون أنا من

شجّعك على...

ـ ولكن لا يجب أن تفكري هكذا! ألا ترين؟ كان عليّ الخلاص من هناك في مطلق الأحوال. وهنا أفضل مكان لي، حيث أستطيع التفكير.

ـ أجل.. لقد فهمت ما تعنين. لو أعطيتك عنواني في المستشفى أتكتبين لي، أتخبريني بأحوالك؟

ـ بالطبع... سأحب هذا، لقد كنت لطيفة معي..

وأخرجت ورقة من حقيبتها، كتبت العنوان وأعطته لميلا.

ـ شكراً.. هل عاد خو.. جدي من السفر بعد؟

ـ لا.. لا يوجد سوى العمال والسنيور جون، وأنا.

وبقي شيء معلق بينهما وكأنها تحاول قول شيء، فقالت ميلا:

ـ ما الأمر؟

ـ إنه السنيور جون.

ـ وما به؟

ـ إنه.. أصبح مختلفاً..

ـ مختلفاً؟ وكيف؟

ـ كيف أعبر عن هذا؟ إنه هادىء جداً، لا يتكلم كثيراً.

ـ أوه...

وتقبلت هذه المعلومات بسهولة، ولم تندهش.. فهو الآن مضطر لمواجهة جدها عندما يعود. رجل ظنت أنه لطيف ورقيق، ولكن الناس لا يتغيرون، لقد كانت تمثيلية، ذكية. وخدعت ميلا بنجاح.

ـ لا بد أنه قلق من عودة خوليو.. واضطراره لإخباره أنني ذهبت. فلا عجب أنه هادىء هكذا...

ـ لا... لا أظن الأمر كذلك.. كيف أستطيع أن أشرح؟ إنه وكأنما قد تغير من الداخل..

ـ ولكن هذا لا يهمك، ستعودين إلى المستشفى، ولا يجب أن يقلقك هذا.

ـ أنا أحب السنيور جون، إنه رجل لطيف، إنه ليس سعيداً.

لم تكن ميلا تريد أن تعرف، قطعاً لا تريد. فوقفت واقتربت من النافذة، ونظرت إلى الجبال البعيدة، البارزة أمام السماء المليئة بالنجوم. وغمرها شعور غير متوقع من الحزن. وقالت «لست أهتم، إنها غلطته، لقد قبل بالعمل، ولم يجبره أحد عليه. والأمور لا تجري دائماً حسب رغبة الإنسان، وهذا أمر سيء له...»

واقتربت جوليتا منها عند النافذة:

ـ أجل.. أعلم.. أعلم بالطبع.. إنه كبير كفاية ليعلم ماذا يفعل.

ولكنني شعرت فقط أنه يجب أن اقول لك، هذا كل شيء. يجب أن أذهب الآن. أرجو أن تكوني سعيدة هنا.. واكتبي لي قريباً.

ـ سأكتب لك.. أعدك.

ـ لن أقول وداعاً.. بل أراك قريباً.

ـ أجل.. أراك قريباً.

ثم ذهبت، اختفت من الغرفة وكأنها الشبح. وبقيت ميلا لوحدها مع أفكارها، أفكار متشابكة. وبعد فترة بدأت تخرج ثيابها من الحقيبة.

خلال الأيام القليلة التي تلت، أبقت ميلا نفسها مشغولة، كي لا تفكر بأي شيء ما عدا مهماتها الحاضرة، وأغرقت نفسها في العمل بحماس، تطبخ. تساعد في تحضير الوجبات، تنظف، ترتب الثياب، ودائماً يرافقها روبرتو، التي وجدت نفسها تتعلق به كثيراً. وتحدثت مع الأخت مادونا عن الموضوع وأخبرتها عن اهتمامها بالصبي:

ـ أترين.. أنا لن أبقى للأبد.. وماذا سيحصل عندما أذهب؟ ومع

ذلك لا أستطيع سوى أن أعتني به.

ـ أعلم هذا، وماذا نستطيع أن نفعل؟ إنه يحبك. سننتظر ونرى ماذا سيحدث.

ولكن هذا الجواب لم يرضي ميلا.. لو أن عندها المال الكافي لقامت بتبنيه.. وعند هذه الفكرة توقفت عن السير فقالت الأخت مادونا:

ـ ما الأمر يا ميلا؟

ـ لا شيء..

ولم ترغب في أن تتحدث عن الموضوع. فيما بعد تلك الليلة، في غرفتها، وقفت عند النافذة تنظر إلى السماء الصافية، ولم تكن قد أشعلت قنديلها، وكانت غرفتها مظلمة. وفكرت.. لو أن لديّ مالاً.. و.. وأخذت نفساً عميقاً. الحل بسيط جداً. ما عليها سوى الذهاب لجدها، لتقول له إنها ستعيش في اميركا، على شرط واحد.. وابتسمت بسخرية، كم هذا سهل، نظرياً.. وليس عملياً، لأنه بهذا يكون قد ربح. كما يفعل دائماً..

كل شيء من حولها كان ساكناً، الأطفال نيام، وتنامى إليها من بعيد صوت التراتيل في الكنيسة، والقمر كان في كبد السماء، يرسل نوره الخفيف فوق الريف، وتخيلت أمامها طيف جون، ونصف ابتسامة على وجهه وكأنه يراقبها. وخفق قلبها بشوق فجائي. لا فائدة.. لقد حاولت، حاولت بقوة، أوه، أن تبعده عنها، لتقول لنفسها إنها لا تحبه، ولكن عبثاً، إنها تعرف أنها تحبه، فالحنين إليه موجود، ولن يذهب، ولكن جون ذهب. لقد قال لها وداعاً. وذهب دون أن يلتفت وراءه. لماذا؟ إنه رجل لا يستسلم بسهولة، ولكنه فعل.

وشاهدت عن بعد حصاناً، وفارساً، وأدركت أن عيناها تخدعانها. لأنها كادت أن تقسم أن الفارس هو جون، وأغمضت عينيها، ثم فتحتهما، متوقعة أن يختفي الخيال. ولكنه كان لا يزال هناك.. واستدار بالفرس وبدأ يجري مبتعداً. وراقبتهما إلى أن أصبحا بعيدين عن النظر. ثم استدارت.. بالطبع.. إنه ليس جون. ولماذا يكون هو؟

ونظرت إلى غرفتها، التي لا تكاد تظهر معالمها، وتساءلت كم ستبقى هنا؟ اسبوع.. شهر.. أكثر؟ ثم ماذا؟ المستقبل لا يزال غامضاً ومبهماً، وأغمضت عينيها في لحظة يأس، إنه الحاضر الذي يهم الآن. ماذا قال آر. أس عندما كان بدور خوليو؟ يوم بيوم.. لا نستطيع ان نعيش سوى يوم بيوم. وهذا ما ستفعله.

في اليوم التالي كان الطقس حاراً جداً. وهبّت ريح جافة من الصحراء. وغمرت الرمال الناعمة كل شيء. وتوتر الاطفال، واصيبت ميلا بصداع. وقالت لها الأخت مادونا وهما تحضران العشاء ذلك المساء.

ـ أنت لست بصحة جيدة يا ميلا. لماذا لا تذهبين لترتاحي؟ سنتدبر أمرنا لا تقلقي.

وهزّت ميلا رأسها، أنها تشعر أفضل وهي تعمل، وهي تعرف هذا، وستبقي نفسها مشغولة فهي لا تشعر بالنعاس بعد. وكان الهواء ثقيلاً، والتنفس لا يحتمل وكأن الرمال موجودة في كل مكان، ولكن أي من الراهبات لم تشتكِ وهكذا هي لن تفعل.

ولكن في وقت لاحق.. وهي مستلقية في غرفتها المعتمة، عادت إليها الشكوك، وشعرت بالقلق والتوتر، كان الوقت يقارب منتصف الليل، والنوم بعيد عنها كما كان في العاشرة، عندما تمنت ليلة سعيدة للأخت مادونا. لا فائدة، وخرجت ميلا من فراشها ووقفت عند

النافذة. كانت الريح قد توقفت، وأصبح الجو أبرد وفي البعيد بدأ الرعد يدوي في السماء، ولمعات البرق تبدو من وقت إلى آخر، لتعلن عن عاصفة في طريقها نحو التلال. ونظرت من حولها، ووجدت الشورت والقميص اللذان كانت ترتديهما يوم أتت إلى هنا. فلبستهما بسرعة، وحتى لا توقظ أحداً تسلقت النافذة وتسللت منها.

كل شيء من حولها كان صامتا.. الباحة، التي عادة ما تكون مليئة بالأطفال خلال النهار، كانت هادئة، والأبنية الخشبية كانت مظلمة، وتسللت ميلا باتجاه الكنيسة. وأصدر الباب صريراً وهو يفتح ودخلت ثم جلست عند مؤخرة المكان. محاولة إجلاء تفكيرها. قرب المذبح كان هناك شمعة مضاءة، مسببة أطيافاً متأرجحة على الجدران والسقف. وبالتدريج شملها هدوء المكان وهي تجلس دون حراك. رأسها كان مليئاً بجون، لم يكن يتركها ولو للحظة واحدة، ولا حتى في أحلامها. لقد كان موجوداً على الدوام، مهما حاولت جاهدة أن تبعده عنها.

وتنفست هامسة «أين أنت الآن يا جون؟» ولم تسمع سوى عودة صدى همسها يرد عليها. وأغلقت عينيها، ورأته ثانية، كما رأته أول مرة، مستلقياً على الشاطىء. منذ تلك اللحظة، تغيرت حياتها إلى الأبد.. ولكنها لم تكن تتصور هذا في ذلك الوقت. رغبتها الوحيدة كانت في الخلاص. ومرت الصور أمامها وكل ما حدث منذ تلك اللحظة المصيرية. وبدا لها أن هناك شيئاً من الحتمية التي لا مفر منها في كل ما حدث، وكأنها تشابك خيوط، تجرّها نحو مكان محدد.. هنا. كانت الأفكار عميقة ومزعجة. ونظرت حولها، محتارة، وكأنها تتوقع أن يدخل جون عبر الباب في أية لحظة. وقطبّت، لأنه بدا لها وكأنه هنا فعلا، وكل ما عليها أن تناديه.

وقالت لنفسها «توقفي عن هذا» ولم تعد تريد البقاء في الكنيسة

اعتقدت أن الأمر سيساعدها، ولكنه لم يفعل.. فقد شعرت عوضاً عن ذلك بالقلق أكثر من قبل، ووضعت يدها على رأسها، ساجنّ.. وعاودها الصداع، وشعرت بأن جبهتها تحترق، وبأنها مريضة. ووقفت ثم فتحت الباب ببطء ونظرت الى المجمع الفضي الظلال، وإلى يمينها البوابة التي تقفل دوماً خلال الليل. وكل ما عليها أن تتسلقها وتذهب في نزهة طويلة علها تشعر بتحسن.

من السهل التسلق، وتسلقت ميلا البوابة الضخمة الخشبية المدهونة بالأبيض. ثم قفزت إلى الناحية الأخرى. ووقفت لحظة لتتعود على ما يحيط بها. الطريق إلى يمينها تعود نحو القرية، ووراء القرية، المزرعة. على كل الجوانب، تلال، يضيئها فجأة ولوقت قصير البرق الساطع، وتبدو جميلة جداً في تلك اللحظات، وكل ما تبقى رمال، وصبار، وشجيرات غريبة، ثم رمال.

كانت وحيدة تماماً. ولا أحد يعرف أين هي. لا أحد يستطيع رؤيتها. لا أحد في الدنيا. وبدأت المسير، وبدا لها وكأن جون دعاها باسمها، حتى أنها توقفت، وتطلعت حولها. ولكن لم يتحرك شيء. لقد كان وهماً، وكأنها سمعت صوته. وهزت رأسها وتابعت المسير ثانية. وعندما توقفت لتنظر خلفها، كان المجمع والأبنية المحيطة به بعيدين، ولكن ليس كثيراً. لن تبتعد أكثر حتى لا تضيع.. فقط ما يكفي لتشعر بالحرية من كل شيء.

وسارت بثبات وبطء، تعدّ خطواتها، تركز على هذا لأنها طريقة لإبعاد جون عن فكرها. ومشت، ومشت، لقد حصل لها شيء على كل الأحوال: لقد زال صداعها.

ثم حدث شيئان معا في وقت واحد. حصل انفجار ضوء على بعد لبرق جعلها تغمض عينيها. ثم استدارت، لترى فقط كم تبعد عن منزلها الجديد.. وشاهدت لساناً من اللهيب الأصفر يتصاعد إلى

الأعلى، وسمعت جون ينادي باسمها عالياً وبوضوح. وللحظات مرتبكة، ارتبط الحدثان معاً. ثم بدأت ميلا تركض، عائدة نحو الميتم، راكضة بأقصى سرعة تقدر عليها، وأسرعت وأسرعت و....

ـ ميلا!

وذكّرها صوت الحوافر الراعد من حولها بالأمر الآخر المفزع. نداء جون لها. واستدارت لتشاهد حصاناً ضخماً يتقدم نحوها مسرعاً وأصبح فجأة وكأنه كابوس حتى أنها صرخت من الخوف. وفي اللحظة التالية رفعتها عن الأرض ذراعين قويتين، وسمعت صوته، وقال لها:

ـ بحق الله، تعلقي بي...

وتابع الحصان ركضه، وتعلقت به خوفاً على حياتها، وذراعاها حول رقبته وجسده الدافىء. ثم الى فوق فوق، لقد طارا، لا بد أن هذا حلم.. ثم أصبحا داخل المجمع.. وشاهدت الأبواب المقفلة. وشاهدت أيضاً لسان اللهب الأصفر، وقد تصاعد الآن أكثر، وينتشر، والدخان يتصاعد في الهواء، ودفعها جون عن الحصان وصرخ بها:

ـ دقي جرس الكنيسة بأقوى ما تستطيعين.. الآن!

ونزل عن الحصان وركض نحو المطبخ، ولم تعد ميلا تشاهد شيئاً، فركضت نحو الكنيسة ثم إلى غرفة الجرس الصغيرة. وبدأت تشدّ حبل الجرس بقوة. ودوى الصوت من حولها وملأ الجو. وشدّت وشدّت، وهي شاحبة الوجه. حتى أحسّت كأن يداها كادتا تسقطان. وسمعت أصواتاً، متشابكة، تصرخ وتركت الحبل ثم ركضت إلى الباحة الداخلية لترى عدة راهبات يخرجن الأطفال النصف نائمين من مختلف الأبنية، الجو مليء بالدخان والشرار، والأطفال يسعلون ويبكون، وهم مرتعبين. راهبة كانت تجر البوابة لتفتحها، يساعدها ولد كبير، ونظرت اليهما ميلا بسرعة وهي تركض نحو المطبخ. كانت

ألسنة النار تبعث من النوافذ والدخان يخرج من الباب... وعلمت أن جون في الداخل. فأخذت نفساً عميقاً، واندفعت، فاصطدمت به وهو يستدير ليخرج، وقد اسودّ من الدخان، يسعل وأمسك بذراعها «أيتها الغبية! اخرجي.. لا تستطيعين فعل شيء هنا» وبينما كان يسحبها الى الخارج، حدث دوي هائل، واندفاع للّهب. وانهار البناء.

وأمسكت بذراعه وصاحت «روبرتو.. بسرعة يجب أن نجده» وركضت نحو غرف المنامة حيث ينام الصغار، ولكنها كانت فارغة. ورأت الأخت مادونا تحمل طفلاً صغيراً، فنادتها «أين روبرتو؟».

ـ لا أعلم!...

وركضت ميلا إلى الداخل، فوجدت فتاة صغيرة تتجول في الداخل وهي دائخة، وحملتها بذراع واحدة، كان الخشب يتساقط في كل مكان. وما هي إلا مسألة وقت قبل أن ينهار المبنى الخشبي بكامله تطمره النيران. ودفعت الفتاة الباكية إلى ذراع راهبة واستدارت تشق طريقها نحو الغرفة المظلمة، وسمعت صوت جون من خلفها يقول:

ـ أنا معك.. اخرجي من استطعت إلى الخارج..

وهكذا فعلاً، ولم تجد أثراً لروبرتو. هل أخرجه أحد؟ لم تكن تعلم. ولم تستطع أن تؤخر نفسها لتعلم. عليها أن تتأكد من أن غرفة المنامة خالية تماماً. وكان معهما ثلاثة راهبات. وبدا عملهم وكأنه عمل مكوك يمررون بينهم الأطفال إلى الخارج حيث يجرى إيصالهم إلى الخارج بسلامة.

ولم تعد ميلا قادرة على التنفس، ولكنها لم تشعر بالخوف. لأن جون كان معها، ومعه تشعر بالأمان. وستكون دائماً بأمان. وخرج آخر طفل، وأمسك جون ذراع ميلا بخشونة «بسرعة، إلى الخارج» وبدأ يدفعها، ويكاد يحملها، وفجأة، وبشعور داخلي لم تستطع ميلا تفسيره عرفت:

ـ لا.. روبرتو.. إنه.. هنا.. في مكان ما...

ـ لقد خرج الجميع بأمان.. من أجل الله...

ـ لا! اذهب أنت.. أعلم أنه هنا.. في مكان ما..

وفي تلك اللحظة سمعا نحيباً خافتاً، طفل صغير يبكي، ولفظة نصف كلمة.. ميلا...

ـ روبرتو.. أنا هنا.. أنا هنا!

واستدارت وركضت دون وعي نحو الدخان، وهي تعرف الآن أين ستذهب، ولم تهتم إذا أتى معها جون أم لا، لأنها ذاهبة لإنقاذ روبرتو...

كان متكوراً على الأرض ينتحب في غرفة الحمام الصغيرة عند نهاية غرفة النوم وركعت ميلا وحملته بين ذراعيها وقالت:

ـ أنا هنا يا روبرتو.. أنت بأمان الآن.

واستدارت نصف استدارة، وشعرت بنفسها تقع، تضطرب في وقفتها، تصرخ.. يعميها الدخان.. تشرق بالسعال.. ولم تعد تحس بشيء.

كانت مستلقية على الأرض، وشخص يصب الماء فوقها. وفتحت ميلا عينيها متسائلة من يهدر الماء الثمين عليها هكذا، وأحست بالمطر ينهمر.

وجلست، ونظرت من حولها لترى منظراً لن تستطيع نسيانه طوال حياتها. مجموعات من الأطفال تقف، وقد بللهم المطر، يراقبون الميتم يحترق وقد انهار على الارض. بعضهم يبكي، والأكبر سناً، والراهبات يطيبون خاطر من يستطيعون. وفي وسط مجموعة كان جون يقف، يحمل روبرتو، يتحدث إلى الأخت مادونا، ويبدو وكأنه مسؤول عن العملية كلها. وعلى الرغم من كل شيء.. ابتسمت ميلا.

بالطبع، وماذا يمكن أن يكون جون يفعل غير هذا؟ وكأنما نادته، فتطلع إليها بسرعة وقال شيئاً للأخت مادونا، وسار نحوها. وركع أمامها ووضع روبرتو بين ذراعيها، وقال:

- هل انت بخير يا ميلا؟

- أجل.. هل الجميع سالم؟

- أجل.. لقد اهتممنا بالجميع.

- وماذا سيحدث الآن؟

- قد يخمد المطر النار، كل ما نستطيعه أن نأمل، لقد هرب حصاني عندما فتحوا الباب، وإلا لذهبت إلى المزرعة لطلب المساعدة. كل ما علينا الآن أن ننتظر ونبقي الأطفال معاً.. هل أنت متأكدة أنك بخير؟

- أجل.. أنا بخير الآن..

ونظرت إليه، ونظر إليها، وفي تلك اللحظة بدا لهما وكأنهما وحيدان في العالم وقال لها:

- لدينا الكثير لنتحدث عنه.

- أجل.. أعرف...

- لقد اشتقت إليك.. لم أتمكن من إخراجك من افكاري.

- أعلم هذا...

- وكيف تعرفين؟

- لأن نفس الشيء حدث لي. حتى أنني اعتقدت أنني رأيتك الليلة الماضية.

- ربما تكوني قد رأيتيني، لقد كنت أتجول على الحصان طوال تلك الليالي اللعينة... لا بد أنني جننت..

وابتسم، وعيناه أصبحتا لطيفتين رقيقتين، وتابع:

- هذا ليس مكاناً مناسباً لحديث حميم. ولكنني لا أهتم.. لقد

قلت وداعاً لك... تركتك تخرجين من حياتي لأنه الشيء الوحيد الذي قررت أن أفعله. لقد كنت تكرهيني... كما اعتقدت. وكرهت آر. أس، وأردتي الهرب من كل شيء، ولذا تركتك، كنت سأقاتل آر. أس. من أجلك. ولكن الأمر لم يكن ضرورياً.

- وماذا تعني؟

- لقد عاد من رحلته وقلت له ما حصل، وانتظرت أن ينفجر في وجهي، ولكنه لم يفعل، لقد فعل شيئاً لم أتوقع أبداً أن أراه يفعله.. لقد بكى.

ونظر جون إلى ميلا برقة، ولمس وجهها وقال:

- أعتقد أنك حولتيه إلى إنسان.

- ولكنني عندما التقيته، واعتقدت أنه خوليو، كان لطيفاً ورقيقاً...

- أعرف هذا، وقد تغير كثيراً في السنوات الأخيرة، وادعاءه بأنه خوليو لم يكن تمثيلية عليك... ولكن بعدما عرفك، أدرك شيئاً.. وأظن أن هذا كان سبب سفره... ليفكر. أتريدين أن تعرفي ماذا أظن أنه قد حدث له فعلاً؟

- أجل.. قل لي...

- لقد أحبك، وبحبه لك أدرك أنه لا يستطيع إجبار الناس على حبه. وأظن الآن، أنه بملايينه، قد تعلّم درساً من الحياة. لم يكن سيحاول إجبارك على العودة. لقد كان سيعرض عليك الذهاب إلى انكلترا لتجدي أقاربك الآخرين.

- آه... لقد فهمت.. ولكنني الآن اظن أنني لا أريد الذهاب. ولن تحزر لماذا؟

- لن أحزر.؟ جربيني.. أعتقد لأنك وجدت نفسك مولعة بهذا التيس العجوز، بعد كل ما جرى.

ـ هذا جزء من السبب.. أجل.

وتنفس جون نفساً عميقاً. وقال:

ـ و... لن يكون هناك سبب آخر، أهناك سبب آخر؟

ـ من الممكن أن يكون.

ـ لا أعتقد أن السبب متعلق بواقع أنني لم أستطع الأكل أو النوم في هذه الأيام الأخيرة، بعد أن اكتشفت أنني غارق حتى أعلى رأسي بحبك..

ـ حسناً.. يمكن أن يكون له علاقة... أوه يا جون.. لم أستطع التوقف عن التفكير بك.

ـ أرجوكِ...

وتطلع حوله.. ولكن صوت المطر المنهمر دون انقطاع قد طغى على كل الأصوات. وكانا غارقان بالماء، مع الصغير روبرتو في حجرها، ولكنها لم تكن لتهتم. لم تشعر في حياتها بمثل هذه السعادة، وبقي شيء واحد يقال... وقال لها ضاحكا:

ـ أنت تجعليني أحمّر خجلاً.!

ـ أريد أن آخذ روبرتو معي عندما أذهب من هنا.

ـ يا حلوتي.. أنت ستغادرين هنا الليلة. لن يبقى شيء هنا. حتى ولو أخمد هذا المطر النار، فلن يكون هذا الميتم صالحاً للسكن.

ـ ولكن أين سيذهب الجميع؟

ـ هناك غرف كثيرة في المزرعة.. إلى أن نعيد بناء المكان.

واستغرقها بضع ثواني لتستوعب ما قاله:

ـ إعادة بناءه؟. ولكن كيف؟

ـ يا حلوتي.. لديك جد غني جداً.. وسيكون هذا شيء تافه له. لا تظهري الدهشة، سوف يفعل، بعد أن أتحدث إليه. وعندما نتزوج سنتبنى روبرتو قانونياً. أهذا ما تريدينه؟

هذا الكلام لم يأخذ وقتاً تستوعبه فابتسمت فوراً.

ـ كم هذا رائع!

ـ وهل ستتزوجيني؟ وعندها سنعيش على مالي وليس مال آر. أس. وأريد توضيح هذا الامر منذ البداية.

ـ أجل يا سيدي..

ـ ولا تتظاهري بأنك محتشمة محافظة عندما لا تشعرين هكذا، فهذا لا يليق بك، انا أحب ميلا المليئة بالنار.

وتوقف، ونظرا معاً إلى الخرائب المليئة بالنار وقال ضاحكاً:

ـ لم أقصد.. هذا..

ـ أعلم ماذا تقصد أيها الأبله.

وأمسكت به وجذبته نحوها.

ـ أوه كم أحبك يا جون كاليهن.. أنا فعلاً أحبك، ولا أهتم بمن يعرف هذا الأمر.

وعانقها فوراً، وتململ روبرتو في حجرها، فأخذا يضحكان دون توقف، واقتربت نحوهما من مكان ما، سيارة، لم يسمعاها تقترب. إلى أن سمعا هتاف الأطفال، فالتفتا ليشاهدا سيارة آر. أس. تقترب اكثر فأكثر، تحت المطر المنهمر.

النهايـة

☆ ☆ ☆